# الفصل الرابع

## حول الألوان
## البيانية فى شعر المتنبى

**تمهيد**

هذا الفصل حول الألوان البيانية فى شعر المتنبى آثرت أن أقدم منه الظواهر البيانية عند الرجل من خلال نوعين من الدراسة :

**النوع الأول :** الدراسة التحليلية : ويعتمد على دراسة الصورة وشرح أجزائها شرحا وافيا ، والتركيز على القيم تعبيرية وشعورية نفسية ، وصوتية ، ودفعنى إلى ذلك إشباع الرغبة فى الدراسة والتحليل ، وتسجيل الانطباع الخاص مستعينا بمقاييس العلم فى دراسة الصورة والنظم .

**النوع الثانى :** الدراسة من خلال تركيز المقاييس البلاغية كما قدمها المتأخرون ، لأنى أدركت ومن خلال مصاحبتى لأشعار الرجل أن توفية كل الألوان حقها من الدراسة أمر يجب أن يتوفر له مجموعة من الباحثين ، فإن الرجل بحق غزير فى مادته التصويرية إلى درجة يصعب تحقيقها فى رسالة واحدة فإن التشبيه لا يمكن أن ينال حظه كاملا من الدراسة ولا أن يوفى التوفية الكاملة إلا من خلال رسالة كاملة مستقلة به لا تتجاوزه إلى غيره ، ومثل التشبيه . الاستعارة . والكناية وفى يقينى أنى استهلكت جل مباحث الألوان البيانية حينما تعرضت لمباحث الصورة فى فصول الصورة والفنون البلاغية ، ومصادر الصورة فى شعر المتنبى وفى خصائص الصورة .

لذا يكفينى أن أقدم كل لون من هذه الألوان بصيغة معينة ما بين التحليل والتركيز مع التنبيه على أننى تناولت ما يتصل بالنص من قيم فى فصول الرسالة وخاصة الثانى والثالث والرابع والخامس .

* * *

## حول الحسية والعقلية والإفراد والتركيب :

لا مفر من تناول هذه الظواهر بشكل كلى متماسك حتى لا تتجزأ الظواهر ، وحتى لا تتوزع القيم ، لاسيما وأن التشبيه مفردا أو مركبا ـ لا يخلو من أن يكون فى الوقت ذاته محسوسا أو معقولا ، فدراسة الإفراد والتركيب منفصلة عن الحسية والعقلية يعطى انطباعا جزئيا أو ناقصا مبتورا عن قيمة التشبيه مرتبطا بهذه الظواهر وإذا جاز ـ تسامحا أن تدرس الحسية والعقلية منفصلة عن الإفراد والتركيب عند شاعر ما ، فإنه لا يجوز فى تقديرى عند المتنبى لشيوع تشبيهاته المقيدة والمركبة[1] التى تتكون فى صورتها وهيأتها من عناصر محسوسة وأكثر ما يكون إدراكها بحاسة البصر ومن خلال الحركة المثيرة ، فلا يمكن تجاهل ما بين التركيب وبين عناصره المفردة من صلة وارتباط يسوغ دمجها فى الدراسة ، حتى يمكن إعطاء تصور صحيح كامل عن قيم التشبيه مركبا محسوسا أو مركبا معقولا .

وشيوع التركيب المشتمل على عناصر محسوسة فى شعر المتنبى يعكس قدرة الشاعر التخيلية التى تستحضر عناصر الوجود ثم قدرته التصويرية التى تضم هذه العناصر على تباعدها لتكون منها صورة مركبة مناظرة لصورة أخرى على أن هذا أمر مرتبط تماما بظرف الشاعر الذى كثر تجواله ، وترحاله ووقوع عينه على مشاهد شتى فضلا عن عدسته المصورة وطاقته الشعرية المتمكنة .

* * *

---

(١) لا فرق عند بعض العلماء بين التقييد والتركيب فى الصورة النهائية بمعنى أن وجه الشبه فى كليهما يكون هيئة مركبة من عناصر جزئية .

## المبحث الأول

# التشبيهات الحسية

إن القارئ لشعر أبى الطيب يدرك أن الرجل كان طموحا إلى المجد يسعى إلى تحقيقه ، والوصول إليه ، وقد نشأ منذ صباه المبكر وهو يرى فى نفسه علو همة لا يشاركه فيها غيره ، وكبر نفس له لسان شاعر ولكن فؤاده فؤاد ملك وقد تملكه هذا الإحساس ، واستبد به ، وسيطر على حركته ، وسكنته ، فعاش له ، وسلك كل سبيل لإدراكه والظفر به .

ورأى أن الطريق إلى ذلك إنما يتحقق بالقوة والحرب فليس المجد فى الزق والقينة وإنما يكتسب المجد بإعمال السيوف فى رقاب الأعداء قتلا ، وفتكا وتضريب أعناق الملوك ، وتسيير الجيش العظيم الذى تثير حوافر خيوله الغبار وقت الضراب والنزال .

لذا أعد نفسه لذلك ، وقد شهد الحرب ، وسجلت عدسته اللاقطة مناظرها وأدواتها ، وهيئات المحاربين ، وصور الأعداء المهزومين وقد أتاح له قربه من كثير من القادة ، واتصاله بسيف الدولة وغيره ، وانغماسه فى تيار الحياة لعهده ، أن يبصر الوقائع وأن يرى ما يجرى فيها وقد استهوته الحرب وآلاتها ، والبادية وحيوانها ، وقد صادف كل ذلك هوى فى فؤاده الطموح الوثاب فخلع من ذات نفسه عليه وردد أنغامه على هذا الوتر . إن الحرب وما يتصل بها ، والبادية وما فيها ، والسحب والأمطار ، والرياح والأنهار ، والإغداق والحرمان ، والخصب والجدب ، والمعاناة والألم ، والقيادة والهمة ، والفتك ومغالبة الحوادث والأيام ، والسماء وما تتزين به من كواكب ، وغير ذلك من لحظات الإشراق النفسى التى يتحدث فيها الرجل عن الجمال ، والحلى ، والسرور ، وهى قليلة نادرة فى شعره كانت نوافذ نفسية ينفذ من خلال تشبيهاته وصوره إلى تشكيلها وتصويرها وأكثر مناحى الإدراك عند المتنبى ما يتصل بالحس البصرى إذ يكثر التصوير التشبيهى بهذا المدرك كثرة ملحوظة .

فالتشبيهات البصرية تتفوق على غيرها من حيث الكم تفوقا واضحا وهى من أضخم ما أنتجه المتنبى وتبدو فيها الحركة واضحة مميزة متلونة ومتعددة ولعل ذلك راجع إلى طبيعة الرجل الذى كان فى قمة الطموح البشرى يسعى إلى المجد مهما كلفه ذلك من ثمن . ويلاحظ أن تشبيهاته فى الحرب وغيرها انعكاس لرغبته النفسية الملحة التى تستبد به ، وتستولى على أحاسيسه ومشاعره ، وتحدد له خطته ، وترسم حركته . فهى لا تقوم بعيدا عن نفسه التى امتلأت بالكفاح ، والثورة ، والحركة ، والانتقال من مكان إلى مكان طلبا لتحقيق طموحه وللمكانة العالية المرموقة التى كان يسعى للوصول إليها عند الملوك والأمراء ، فهو عندما يصور بالتشبيه ما وقعت عينه لم يصوره بمعزل عن آماله ورغباته وإنما توسل به ليرسم نفسه من خلال صوره . وتعتمد الصورة البصرية على إدراك الأشياء ورؤيتها بأحجامها ، وأشكالها ، وألوانها وحركاتها ، وسكناتها وهدوئها وضجيجها ثم التأمل المستغرق فى إدراك النظير والمماثل وربطها به ، وتصويرها بصفاتها الداخلية وصفاتها الخارجية من خلال رؤية شعرية تستبطن الذات ، وتحسن التوسل فى التعبير والتصوير .

## تصوير الحركة والسكون فى شعر المتنبى :

المتنبى شاعر الطموح والمجد ملأ الدنيا ، وشغل الناس . رحالة جوَّاب .

والصورة التشبيهية فى شعره قد جاءت فى كثير جدا منه مقترنة بالحركة كما جاءت فى القليل منه هادئة ساكنة من خلال إحساس عند صاحبنا أفرز هذين العنصرين ولقد أشاد الإمام عبد القاهر بالتشبيه الذى يأتى ممثلا للحركة وقال عنه :

« إن مما يزدان به التشبيه دقة وسحرا ، أن يجىء فى الهيئات التى تقع عليها الحركات »[1] وذلك أن اقتران التشبيه بالحركة يزيد من قدرته على التأثير فى النفس « والتقاطها أى (الحركة) وهى جادة فى حركتها واضطرابها دليل المقدرة

---

(١) أسرار البلاغة ٢/٢٩ تحقيق دكتور خفاجى .

والوعى وقوة الملاحظة ثم تصويرها وهى تتحرك أعنى المحافظة على هذه الحركة الحسية الباعثة للنفس والتى تنفى عنها ملل الجمود ملكة أخرى»[1].

يقول المتنبى فى مديح سيف الدولة وتصوير الروم المنهزمين[2] :

شَنَنْتَ بِهَا الغَاراتِ حتّى تَرَكْتَهَا ... وَجَفْنُ الذِى خَلْفَ الفرنْجَةِ سَاهِدُ

مُخَضَّبَةٌ والقَوْمُ صَرْعَى كَأَنَّهَا ... وإنْ لَمْ يكُونُوا سَاجِدين مَسَاجَدُ

تنكِّسُهم والسَّابِقَاتُ جِبَالُهُمْ ... وَتَطْعَنُ فِيهِمْ والرِّمَاحُ المَكَايِدُ

وَتَضْرِبُهُمْ هَبْراً وَقَدْ سَكَنُوا الْكُدَى ... كَمَا سَكَنَتْ بَطْنَ التُّرَابِ الأَسَاوِدُ

وتُضْحِي الحُصُونُ الْمُشْمخَراتُ فِي الذُّرَى ... وَخَيْلُكَ فِي أَعْنَاقِهِنَّ قَلاَئِدُ

فإذا تجاوزت البيت الأول الذى يصور هول الرعب الذى يعيش فيه الروم خوفا من غارات سيف الدولة المتفرقة ، والمفاجئة وقد حرم بسببها البعيد من النوم فكيف حال القريب ؟ وأنعمت النظر الفاحص فى البيت الثانى :

مُخَضَّبَةٌ والقَوْمُ صَرْعَى كَأَنَّهَا ... وإنْ لَمْ يكُونُوا سَاجِدين مَسَاجَدُ

لرأيت هذا التشبيه الذى يأتى متوافقا مع حركة الشاعر فى الحياة : وفيه يشبه بلاد الروم وقد خضبتها دماء القتلى المسفوحة ، ولطخت جدرانها بالمساجد التى طليت (بالخلوق) وهو نوع من الطيب أعظم أجزائه من الزعفران المعروف بلونه الذى يشبه لون الدم .

كما شبه الصرعى المقتولين بالسّجّد ، لانكبابهم على وجوههم فى هذا المشهد الدامى العنيف ولك أن تتأمل التركيب الذى سبق من خلاله التشبيه وتتوقف أمام كلمة : (مخضبة) وما تومض به ، وتشير إليه من غزارة الدماء وكثرتها حيث إن المخضَّب هنا هو بلاد الروم على سعتها والتى شهدت المعركة وقد غطيت جدرانها بالدم والذى صار لها خضابا ، وأصبح علامة بارزة عليها . ثم هذا اللفظ (صرعى) وما له من دلالة تبين أن القوم مطروحين على الأرض هلكى ، إنهم منكبون على وجوههم فى هيئة الساجدين وما هم بساجدين فى صورة بشعة ، وهيئة مزرية وإذا كان تشبيه الصرعى المنكبين على مناخرهم يمكن أن يشير إلى الهدوء التام

---

(١) أستاذي الدكتور : محمد أبو موسى التصوير البيانى ص ٥٢ .

(٢) الديوان ١/٢٧٣ .

والصمت المطبق الذى يجمع بين الطرفين فإن الحركة المضطربة تبلغ قمتها فى بقية أجزاء الصورة حين يضطرون مجبرين فى ذلة واستكانة إلى النزول قهرا من فوق حصونهم وقد ظنوا أنهم مانعتهم من الهزيمة النكراء . . وما هى كذلك ، بعد أن نكسهم هذا الفارس الشجاع وأعمل فى رقابهم سيفه تقتيلا ، وتقطيعا وتمزيقا . تحيط بهم خيله إحاطة القلادة بالعنق فى قوله :

تنكِّسُــهُمْ والسَّــابِقَاتُ جِبَــالُهُمْ  وَتَطْعُــنُ فِــيهِمْ والرِّمَــاحُ المَكَايــدُ

وانظر إلى تشبيه الخيول هنا بالجبال فى قوله : والسابقات أى : الخيول جبالهم فى الضخامة ، والارتفاع ، والعزة ، والهيئة ، والمنعة ، وقد اعتصم بها القوم وتترسوا من خلفها ، ومدى ما يفيض به معنى (الجبل) المشبه به هنا من صورة الرهبة ، والهيئة ، والرزانة ، والضخامة ، والمنعة والارتفاع وانعكاس ذلك بنفس القدر على المشبه (السابقات) خيول أعداء سيف الدولة فإن عدو الرجل ليس سهلا، أو ضعيفا حتى لا يكون هناك مجال للفخر بسحقه ، والانتصار عليه ، ولكنه جيش قد أعد عدته ، وجهز نفسه وأخذ بأسباب القوة ومع ذلك لم يفلت من ضربات سيف الدولة القاصمة ، ومن طعناته النافذة القاضية وإنك لتكاد ترى من خلال الصورة «التشبيهية» ، وما تتدفق به من عطاء منظر المسحوقين وقد أجبروا على النزول من فوق أعالى خيولهم فى حركات عنيفة مضطربة وغير منظمة تحت وطأة الحصار الرهيب ، والضغط الشديد القاهر على هذه الصورة التى احتواها اللفظ (تنكسهم) من القهر والضغط ، والقلب والذلة مع إسناد الفعل فيه إلى سيف الدولة فهو القائد الآمر المدبر ، ويا لها من هزيمة ألحقت بهم العار ، والشنار ، والخزى ، والضياع . ثم تأمل التشبيه فى قوله :

وَتَطْعَــنُ فِــيهِمْ والرِّمَــاحُ المَكَايــدُ

وما يعطيك من معنى أن الرجل واسع الحيلة مدبر للأمور ، يحسن التصرف فيها وكأنه يقاتلهم بسلاحين :

سلاح : يعتمد على آلة الحرب ، من فرسان شجعان ، يضربون بسيوف متعطشة ظامئة إلى الرى من مناهل الأعداء،والشوق إلى إعمال القطع فى رقابهم ونحورهم.

وسلاح : آخر من كيد الرجل ، ودهائه ، وسعة حيلته ، فهو أخ للحرب قد بلاها وجربها ، واكتسب الخبرة من ملازمته إياها ، وعدم مفارقته لها حتى لكأن المكايد أنفسُها قد أصبحت رماحا للفارس المغوار يطعن بها ويضرب .

وهو حين يكنى عن هذا بهذا التشبيه (والرماح المكايد) فيشبه الرماح بالمكايد تشبيها مقلوبا فى الوصول إلى الغرض وتحقيق النصر إنما يسعى للمبالغة فى دهائه وشدة كيده واستثماره لوسائل النصر والدمار فى الحرب ومنها إعمال الحيلة ، والكيد ، وتغفيل الخصم ، والتغرير به وخديعته .

ثم استمع إلى هذا التشبيه من فم الشاعر :

وَتَضْرِبُهُمْ هَبْراً وَقَدْ سَكَنُوا الْكُدَى  كَمَا سَكَنَتْ بَطْنَ التُّرَابِ الأَسَاوِدُ

(والهبر) هو تقطيع اللحم وتمزيقه (والكدى) هنا هى المغارات التى تتوقف عند صلابتها حوافر الخيول فلا تسيخ فى الأرض بعدها ولا تغوص والتشبيه يشرح ويوضح المصير المؤلم الذى آل إليه هؤلاء الأعداء .

حين يشبه اختفاءهم واكتمانهم فى المغارات وتحت الصخور باختفاء الحيات واكتمانها فى بطن التراب ، فى عدم الظهور والوضوح ، لقد ضربهم سيف الدولة ضربا قطع لحومهم ولك أن تتخيل صورة هؤلاء المغلوبين المقهورين بعد أن أصبحوا بيد سيف الدولة فمزق أجسادهم إلى قطع ساخت فى الأرض وغاصت تحت حوافر خيوله الظافرة المنتصرة ، وهو يسعى إليهم فى مغاراتهم ومكامنهم التى سكنوها واكتمنوها كما تسكن الأساود (ضرب من الحيات خبيث) التراب إن تشبيه اختفاءهم باختفاء الحيات فى عدم الوضوح والظهور يلقى بظلاله النفسية هنا على الصورة فاختفاء القوم فى جحورهم كاختفاء الحيات فى باطن التراب لم يبعدهم عن يد الجيش القابضة الباطشة التى وصلت إليهم وكانت قدر الله الغالب الذى لا يمكن دفعه كما أن المشبه يكتسب من المشبه به صفاته(والأساود)نوع خبيث من أنواع الحيات يتخذ من باطن الأرض سكنا له ، ولك أن تقابل بين هؤلاء الذين مزقهم سيف الدولة وقطعهم إلى قطع صغيرة وبين الحيات الحد الثانى فى التشبيه لترى إلى أى مدى كان عليه هؤلاء من الخبث والغدر .

ثم انظر إلى هذه الصورة التشبيهية التى تتركب أجزاؤها من الحصون المشمخرات المتطامنة المتعالية وخيل سيف الدولة تحيط بها إحاطة تامة وتدك قلاعها دكا ، وتعصف بها عصفا .

وَتُضْحِي الحُصُونُ الْمُشْمخَراتُ فِي الذُّرَى وَخَيْلُكَ فِي أَعْنَاقِهِنَّ قَلاَئِدُ

إن تشبيه إحاطة خيل سيف الدولة بتلك الحصون بإحاطة القلائد بالأعناق لا يأتى منفصلا عما قبله فى نفس البيت إن الفعل(تضحى)هنا يشع شحنة هائلة كبيرة من الظلال التى تصور هذه الحصون وقد باتت آمنة مطمئنة فما إن جاء وقت الضحى إلا وقد صارت على حال غيرالحال وإنها لحصون منيعة قد تحصنت هى بكونها مشمخرات وإن(مشمخرات) هنا لتبصر فيها معنى التعالى والارتفاع والكبرياء ، والتأبى والشموخ والامتناع وإنها ليست عالية وشامخة ولكنها قمة القمم فى الارتفاع والعلو إنه علو لا حد لمنتهاه إنه هناك فى الذرى ، حيث لا يستطيع أن يصل إليه أحد .

فإذا كان هذا هو حال هؤلاء القوم وتلك حصونهم فإن مباغتتها والإحاطة بها إحاطة القلائد بالأعناق ، فلا تستطيع فكاكا ولا تملك إلا الاستسلام فى ذلة وضعة ومهانة لا يمكن إلا أن يدل على قوة هذا الجيش المحارب وعلى براعة الممدوح ، وشجاعته ، وجرأته ، وقوة حركته ، إن التشبيه الذى ينعقد من خلال تشبيه إحاطة خيل سيف الدولة وحركته المباغتة لتلك الحصون العالية بإحاطة القلادة بالعنق فى الإحاطة والالتفاف والشمول يعطى كل تلك الدلالات الشعورية التى تنفست بها أجزاء الصورة التشبيهية ، واتضحت فى الحركة السارية فيها وقد تتوقف أمام كلمة (القلائد) وترى فى التعبير بها انفصالا عن الشعور السائد فى الأبيات وردة عن الإيقاع الذى يدمدم به الموقف النفسى مع صهيل الخيول ، وقطع الرقاب ، واشتجار القنا ، وطعن الرماح (فالقلائد) إنما تُزَيِّنَ وتحلى جياد الغادات الحسان وصدور الفاتنات الساحرات والمجال مجال ضرب وطعان ، وحرب ونزال ، ولكنه المتنبى العجيب الذى يريد أن يشعرك أنه وهو فى مواطن الحرب والضراب كأنه فى موقف غرام وعشق وهيام فيستخدم صور الحب فى الطعن والضرب أو ليس هو القائل :

أَعْلَى المَمَالِك ما يُبْنَى عَلَى الأَسَل  وَالطَّعْنُ عِنْدَ محبِّيهِنَّ كَالقُبَلِ [1]

ومن جو السيفيات والمعارك ترى صورة تشبيهية جزئية للحركة تنقل إليك الإحساس بهيئة الجيش الذى ملأ على الشاعر نفسه فصبه فى تشبيه تصويرى مادحا لسيف الدولة ، ومتغنيا بأمجاده وقد ظفر ببنى كلاب فأدبهم يقول الشاعر :

طَلَبْتَهُمَ عَلَى الأَمْوَاهِ حَتَّى  تَخَوَّفَ أَنْ تُفَتِّشَهُ السَّحَابُ
فَبِتَّ لَيَالِيًا لاَ نَوْمَ فِيهَا  تَخُبُّ بِكَ المُسَوَّمَةُ العِرَابُ
يَهُزُّ الجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبَيْهِ  كَمَا نَفَضَتْ جَنَاحَيْهَا العُقَابُ

فإذا تجاوزت الاستعارة المكنية فى البيت الأول حيث السحاب المذعور الخائف من تفتيش سيف الدولة قد جد طلبهم على الأمواه ممتطيا صهوة خيل معلمة تعدو به ولا تعرف النوم .

إلى صورة الجيش فى البيت الثالث وقد نظر الشاعر إلى هيئته نظرة فاحصة ورأى صورة سيف الدولة فى مكان القلب منه وقواته عن يمينه وعن شماله تتحرك وتهتز فى شكل موجات بشرية متلاحقة تستمد من قوة سيف الدولة قوة ، وتتزود من أبهته أبهة وعظمة فشبه هذه الهيئة هيئة الممدوح وهو وسط قواته ، وقواته تهتز عن جانبيه وهى تتحرك وتسير بهيئة هذا العقاب الطائر الذى ينفض جناحيه من حوله ويهزهما ويحركها فى طيرانه فى وجه شبه حاصل من هيئة شىء يسير فى الوسط وعن يمينه وشماله من يتحرك ويسير بسيره .

إن صورة الفعل (يهز) هنا توحى بالحركة والرجرجة والزجزجة والمد ، والجزر ، والاضطراب فى السير . وهو ما يمثل حال الجيش فعلا فى مسيره ، وقائده فى وسطه ، وفى مكان القلب منه ، فإذا أنت وضعت هذا الفعل فى مقابل نظيره فى المشبه به (نفض) وما يمثله هذا النفض من العقاب للجناحين ، والرفرفة بهما من ارتفاع وانخفاض وصعود وهبوط فإن المشبه يكتسب صفات المشبه به حتى ليخيل إليك أن الأرض تهتز مع اهتزاز الجيش ، وتتحرك بحركته وتميل إلى

---

(١) ديوان العكبرى ٣/٣٤ .

أحد الجانبين ميلا عظيما ثم تعود فتعتدل وقد تميل إلى الجانب الآخر شأنها فى ذلك شأن حركة العقاب الطائر الذى ينفض جناحيه من حوله ويرفرف بهما فى طيرانه .

ويرسم المتنبى صورة صاخبة لجيش الحسن بن عبيد الله بن طفج ويجليه فيها وترى من خلالها نوعا من الحركة تبدأ صاخبة ثم تنتهى فى صورة التشبيه هادئة يقول أبو الطيب[1] :

وَذِى لجبٍ لاذُو الجِنَاحِ أَمَامَهُ ... بناجٍ ولاَ الوَحْشُ المُثَارِ بِسَالِمِ
تَمُرَّ عَلَيْهُ الشَمسَ وَهْىَ ضَعِيفَةٌ ... تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ القَشَاعِمِ
إذا ضَوْؤُهَا لاَقَى من الطَّيْرِ فَرْجَةً ... تَدَوَّرَ فَوْق البِيض مِثْل الدَّرَاهِمِ

وأنت تكاد تسمع الضجيج الصاخب من خلال هذا الجيش «وذى لجب كناية عن الجيش» المندفع المتقدم لا تخطئ نباله ذا الجناح المحلق فى الفضاء ، ولا يسلم من سهامه الوحش الكاسر ، إن حركته السريعة تثير النقع فى الفضاء حتى ليكاد يحجب ضوء الشمس وتتبعه الطيور الجوارح لأنها تعودت أن تحصل على وجباتها الشهية من جثث قتلاه وضحاياه فى أرض المعارك . هذه النسور الحائمة المحلقة التى تزحم الأفق لا تجد الشمس مكانا تنفذ منه إلى الأرض نظرا لتدافعها وتزاحمها فإذا صادفت فرجة ينفذ منها ضوؤها تدور فوق البيض مثل الدراهم .

والمتنبى يشبه ما يتساقط من ضوء الشمس فى دوائر مستديرة لنفاذه من خلال الفرج الضعيفة بالدراهم المستديرة فوق المغافر والخوذات فى وجه شبه هو اللون والحركة والصورة والتشبيه يدل على مشاهدة المتنبى الدقيقة لمظاهر الأشياء ، واستثمارها فى تشبيهه . وتظهر الحركة غير المستقرة فى هذه الصورة واضحة نظرا للحركة الدائبة للفرسان وعلى رؤوسهم المغافر التى تنبسط عليها تموجات الضوء وتنقبض للتلازم بين ظهور هذه الدوائر ووقوعها على بيضات المقاتلين وتحركها بحركتهم ولما كانت الأشعة الضوئية تطالع الجيش من خلال ريش القشاعم حين

---

(١) الديوان ٤/١١٣ ، ١١٤ .

تعثر على فرجة تتساقط من بينها وحركة الطيور دائبة غير مستقرة ، ولا ثابتة لأنها تتبع الجيش ، وتحوم فوقه كان ما ينبعث من فرجها من ضوء متحركا وغير ثابت .

ولك أن تتأمل من وحى الصياغة كيف تفيض الصورة بقوة هذا الجيش المكتسح الضارب ، وأن رايات النصر معقودة بلوائه ، وهل تتبعه الطيور الكاسرة وقد بلغت من الكثرة حدا تكاد معه تسد مطالع الشمس محلقة فوقه ومحومة إلا لما عودها عليه من الثقة بالشبع من جزر ولحوم أعدائه والرى من مناهلهم بعد أن يخلفهم صرعى على أرض المعركة .

ألا يدل الفعل (تدور) هنا على الحركة الهادئة البسيطة التى تتوافق وتلك الدوائر الضوئية ؟ ثم ألا يدل التعبير باستخدام (مثل) كأداة للتشبيه رابطة بين طرفى الصورة على ما يحس به الشاعر من تصعيد فى درجة المقاربة والمماثلة بين المشبه والمشبه به ؟

ثم ألا يرتبط التعبير (بالدراهم) واستخدامها مشبها به بنفسية الشاعر المنشئ؟ ونحن نعلم من تاريخ الرجل أنه كان منهوما إلى الدراهم والدنانير لا يقنع ولا يشبع ففاضت الصورة بالرغبة التى في نفسه ؟.

إنك لو فهمت هذا من السياق الذى وردت فيه وقلت به ما خالفت وحى الشعر ، وما خرجت عليه فى قليل أو فى كثير .

وإذا كنت قد تحدثت عن الحركة فى تشبيهات المتنبى واخترت لها صورا من حربياته فما كان لهذا من دافع سوى مصاحبة هذا الرجل فى لون من ألوان شعره تغنى به كثيرا ، وأطال الغناء ، لأنه فيما أرى كان يزاوج بين البطولة الذى يتحدث عنها وبين ما يدعيه لنفسه من مجد . ومن الملائم أن أترك جو المعارك وألتقى بالرجل فى صورة راضية حالمة وضيئة يصور فيها الحركة الهادئة المتناغمة وهو يمدح عضد الدولة ويصف شعب بوان[1].

مَغَانِى الشِّعْبِ طِيباً فِى المَغَانِى ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

مَلاَعِبُ جِنَّةٍ لَو سَارَ فِيهَا ... سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتُرْجُمَانِ

---

(١) الديوان ٤/٢٥١ .

طَبَـتْ فُرْسَـانَنَا والخَيْـلَ حَتَّـى ... خَشِـيتُ وإنْ كَـرُمْنَ مِـن الحِـرَانِ
غَـدَوْنَا تَـنْفُض الأَغْصَـانُ فِيـهِ ... عَلَـى أَعْرَافِهَـا مِثْـلَ الجُمَـانِ
فَسِـرْتُ وَقَـدْ حَجَبْنَ الشَّـمْسَ عَنِّـى ... وَجِـئْنَ مِـنَ الضِّـيَاءِ بِمـا كَفَـانِى
وَأَلقَـى الشَّـرْقُ مِنْهـا فِـى ثِيَـابِى ... دَنَـانِيراً تَفِـرُّ مِـنَ البَنَـانِ
لَهَـا ثَمَـرٌ تُشِـير إلَيْـكَ مِنْهَـا ... بِأَشْـرِبَةٍ وَقْفْـنَ بِـلاَ أَوَانِـى
وَأَمْـواءٌ يَصِـلُ بِهَـا حَصَـاهَا ... صَـلِيلَ الْحَلـيِ فـي أَيْـدِي الغَـوَانِى

وأنت مع المتنبى فى لحظة من لحظات الرضا الشفيف الرفاف ، انطلق فيها يتغنى بجمال شعب بوان ، ويصف مفاتنه الآسرة ، ويخيل إلى أن الرجل قد خالف طبعه فترك لمناظر الطبيعة منافذ تتسرب منها إلى أعماق وجدانه ، وأصغى إلى همساتها الساحرة ، وشدوها من حوله . وقد امتزجت أنفاسها الآسية المنغمة بأنفاسه الناغية المطرابة فى هذا الغناء المرقص الجميل وأول ما يلقاك هذه الصورة التشبيهية مصورة هذا المغنى فى تفرده ، وتفوقه على غيره من المغانى والأماكن فيشبهه بالربيع فى امتيازه وتفوقه من بقية فصول الزمان ووجه الشبه هو الامتياز والتفرد والجمال . كما يشبه هذه المعانى (والمشبه محذوف) أى هى وكذلك أداة التشبيه يشبه هذه المغانى بملاعب الجن فى الجمال والتنظيم والتنسيق (والمغنى) هو المكان الذى غنى بأهله ، وهو هنا كثير الأشجار ، ملتف الأغصان تتطاير الحمائم فى أفنانه ، وتتغنى على كل سرحة فينانه من رياضه ، وتجرى المياه من تحته ، وتحتشد مظاهر الفتنة فى كل شىء فيه . ولك أن تتأمل كيف تتجمع كل مناحى الجمال والفتنة وتصب فى هذا المشبه الذى يراد شرحه وتوضيحه (ومغانى الشعب طيبا) هكذا (طيبا) بكل هذا الشحن والاحتشاد والعمق والتركيز والتعبئة لكل ما هو هانئ رغيد مما تحلم به النفس البشرية وترغبه وتتمناه (طيبا) بهذا الصوت الطويل الممتد الخارج من الأعماق ، وما يثيره فى النفس من أشواق المباهج واللذائذ ، والمسرات . وقياس هذه المغانى وتشبيهها بالنسبة لغيرها من الأماكن بالربيع بالنسبة لغيره ، من فصول الزمن وإنما هو قياس تقريب وإلا فأين الربيع الذى تعرفه ككم زمنى بأيامه ولياليه من مغانى الشعب بهيئته التى تحمل رصيدا مذخورا من مجالى الفتنة والجمال؟ وقد تفهم الربيع المشبه به بآثاره

ومظاهره حيث تتفتح الأكمام عن أزهارها ، ويعبق الجو بعطر ورودها ، ورياضها وتتشقق أرحام الأرض عن أجنة نبتها .

وتضحك الطبيعة من فرط إشراقها ، وتتجاوب أغانى البلابل فوق أشجارها . ويعتدل الجو فتهب نسماته لا حارقة ولا باردة تنعش السارين وتتمثل السمار .

وتتعطف الجداول الرقراقة ، وتتمايل ، وتنثنى ، والأطيار تداعبها وتلاغيها إنها روح الحياة تدب فى مفاصل الحياة فتولد ولادة جديدة ، وتتشكل فى صور فريدة وبذلك توجد قنطرة وجدانية بين طرفى التشبيه هذا المغنى الوادع بهيئته التى عرفتها من خلال ما فجرته الألفاظ من طاقات شعورية يشبه بملاعب الجن فى الجمال والتنسيق ولك أن تطلق لخيالك العنان ليتصورها وكيف تكون؟ إنها نمط راق من الفن المنسق والفتنة الخالية والسحر الساحر ، إنها كملاعب جنة (جنة) هكذا بالتنكير وما يمكن أن يعطيه هنا من إفادة أنه نوع خاص من الجن ، والجن صناع حاذق مفتن ماهر يعجز الإنسان عن محاكاته ومجاراته فكيف بهذا النوع المميز منه ؟

وملاعب جنة بما يمكن أن يوحى به اللفظ من دلالة هى أماكن لهوه ، وجريه وعبثه . فهل يشير ربط المشبه بالمشبه به إلى ألاعيب أهل المغنى وطربهم؟وهل يعكس المشبه به دلالته على المشبه فى هذه المغانى الرائعة روعة الربيع فى قلب الزمن؟ وهل لقول الشاعر فى سياق التشبيه :

(لَو سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتُرْجُمَانِ)

من ظلال نفسية غير دلالته اللغوية؟ فيفهم أن الرجل يستشعر الغربة من أعماقه فى هذا المكان الآهل الغانى العامر كغربة هؤلاء القوم فى لهوهم ولسانهم ، الذى يحوج سليمان وقد علم منطق الطير إلى مترجم يفصح له عن كلامهم ، وهو يرى أن الفتى العربى فى هذه البلاد غريب فى قسماته وملامحه ، غريب فى روحه وفى كلامه ولسانه « مما يفهم منه أنه هجاء لأهل هذا المغنى »[1].

---

(١) المتنبى ١/٢٨٠ علامة العرب الفحل الأستاذ القدير محمود محمد شاكر .

وهل يفهم من هذا التشبيه ودلالته أن الرجل لم يستطع أن يتخلص طويلا مما طبع عليه من نظرته إلى الحياة والأحياء ، وأن رؤيته إنما تتحدد من خلال الربح والخسارة؟وأنه لم يكن سعيدا بهذه الزيارة بعد أن طالت واستشعر معها غربته النفسية بعد غربته الجسدية ، مع أن عضد الدولة قد أغدق عليه الكثير إن صح ما ذكره الرواة :

إن هذه المغانى تستبد بمشاعر من يراها وهذا كناية عن جمالها الذى يدعو كل من يمر عليها إلى الإقامة بها حتى لقد خشى الشاعر على كرام الخيول من الحران بسبب رغبتها فى البقاء فى تلك المغانى الزاهية .

وفى البيت الرابع :

غَـدَوْنَا تَـنْفُض الأَغْصَـانُ فِيـهِ عَلَـى أَعْرَافِهَـا مِثْـلَ الجُمَـانِ

تبدو الجياد المعلمة وقد امتطاها فرسان شجعان ، وهى تختال بهم تيها فى الصباح الباكر والشمس تطل من خدرها كالوليد الجديد وقطرات الندى اللماع تتدلى وتتناثر من خلال أوراق الأشجار الكثيفة التى بسقت أغصانها ، وفرعت فروعها ، فى هذا الوادى الساحر على نواصى تلك الخيول المطهمة التى تمشى الهوينى فى خفة النسيم يتداعب بعضها فى أثر بعض وكأنها حبات الجمان بما فيها من ألق وضياء . والمتنبى يشبه قطرات الندى التى تتجمع بالليل على الأغصان ثم تتدلى وتتساقط على نواصى الخيل بحبات الجمان ووجه الشبه هو الشكل والصورة .

ولكن الصورة التشبيهية تكتسب أبعادا جمالية من خلال هذا المشهد الاستعراضى المتحرك يضاعف من جمالها المنظور ويزيد من مساحتها النفسية فالفعل (غدونا) يُعَيِّن لنا وقت السير فى الصباح المبكر حيث الطبيعة النقية الودود الحنون ، والجو المسكر الجميل ، والنسيم العليل بعيدا عن ضوضاء الحياة وصخب الناس ، والغزالة فى حجر أمها ، وقد صحت من رقدتها ، تبعث بأسلاكها الذهبية المتموجة فى خفر واستحياء فتشرق بإشراقتها النفوس ، وتتجدد معها الآمال .

وامتطاء الخيول فى هذا الوقت الندى بين المزارع والرياض حيث الخضرة اليانعة ، والجداول الرقراقة ، والأغصان المتشابكة ، جمال يزيد من روعته أن تخلع عليه الحياة فترى الأغصان وقد سرت فى أوصالها الحركة . فإذا بها تنتفض ، وتنفض ما تجمع فوقها بالليل من قطرات الندى الذى يتدلى ويتناثر على أعراف تلك الخيول وكأنه فصوص اللؤلؤ المنضود فى هذا الوادى الظليل يسير الشاعر والأشجار الباسقة على جانبى الوادى تتلاقى وتتعانق فَتَحْجُبُ أذى الشمس عنه وتأتيه من الضياء بما يكفيه وحين تتسلل أشعتها إليه ، وترسل بضوئها من بين الأوراق لتحط على ثيابه تفر هاربة ، وكأنها الدنانير ، والتفصيل فى التشبيه المبنى على الاستعارة فى قوله :

وَأُلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِى ثِيَابِى دَنَانِيراً تَفِرُّ مِنَ البَنَانِ

فيه نظر إلى ما طبيعة الدوائر الضوئية التى تنفذ إلى الأرض من خلال فرج الأوراق وتظهر فيها الحركة عند محاولة القبض عليها باليد إذ إنها تفر هاربة ولا تستقر وفى البيت السابع :

لَهَا ثَمَرٌ تُشِير إِلَيْكَ مِنْهَا بِأَشْرِبَةٍ وَقْفْنَ بِلاَ أَوَانِى

تظهر الصورة التشبيهية وتتحدد ملامحها من خلال تشبيه الهيئة الحاصلة من شفافية الثمار ، وظهور مائها من تحت قشرتها بهيئة ظهور لون الشراب الرائق من خلال أوانى الزجاج الصافية غير الكدرة ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من لون وصورة الشىء يظهر ويشف من وراء ما يمسك به ويقوم بحفظه مما هو رائق غير كدر . إن الشاعر قصد إلى وصف تلك الثمار الناضجة المعقودة فوق أعالى الأغصان وقد استهوته بألوانها المختلفة ، وبهيأتها الرَّيَّاحِينَ أبصر ما يراه من تحت قشورها الرقيقة الناعمة ، والتى لم تخف لشفافيتها وصفائها من لونه شيئا . إن شكل الثمار ولونه يبرق ، ويشف من وراء تلك القشور ممّا يشير إلى الواقف المتأمل أن يتملى تلك الأشربة القائمة فى الفضاء والواقفة على الأغصان بلا أوان تمسكها ، وتحول بينها وبين الانسياب والسيولة .

أرأيت لون الشراب الصافى يوضع فى الزجاجة الصافية التى رقت وسلمت من الكدر؟

فيتصل شعاع الشراب بشعاعها ، ويمتزج ضوؤه بضوئها ، وكأنه واقف من غير شىء يمسكه إن الزجاجة هنا لم تعد تتبين للرائى ، ولو تكدر الشراب لما خفى الإناء على الرائين ، ألا توحى الصورة التشبيهية هنا بشىء من الراحة والهدوء والاطمئنان ؟

ثم ألا تستوحى صورة الثمر الناضج الذى يشير إليك وكأنه يحس ، وينفعل ويتحرك أن تتملى تلك الأشربة المرئية القائمة فى الهواء ما يمسكها من شىء مكامن الإعجاب ، ومثار الدهشة والبهجة والسرور .

ألا تدل الصورة التشبيهية على حال هؤلاء القوم ـ وتلك ديارهم وهذه مغانيهم ـ إلى أى مدى كانوا عليه من بلهنية فى العيش ورغد فى الأيام وطيب فى الحياة؟

ثم ألا تستشعر من الصورة الدعة والسكون من خلال تلك الثمار الزاهية الفواحة التى تشف قشورها عما تحتها فى صمت ، ومن تلك الأوانى الصافية التى يتبين الناظر لون الشراب الرائق منها فيراه ولا يكاد يراها لأنها ممتزجة به فى سكون؟

هذا وقد يصور التشبيه الحسى الحركة الخاطفة السريعة المكررة :

كما فى هجاء المتنبى لابن كيغلغ[1] :

وَجُفُونُـــهُ مَـــا تَسْـــتَقِرُّ كَأَنَّهَـــا ... مَطْرُوفَـــةٌ أَوْفُـــتَّ فِيهَـــا حِضْـــرَمُ

وَإِذَا أَشَـــارَ مُحَـــدِّثًا فَكَأَنَّـــهُ ... قِـــرْدٌ يُقَهْقِـــهُ أَوْ عَجُـــوزٌ تَلْطِـــمُ

والمتنبى يشبه جفون المهجو فى حركتها السريعة غير المستقرة بين انفتاح وانغلاق بعينه حين تطرف فتصاب بأذى أو يقطر فيها بعصير حامض من شراب العنب الذى لم ينضج ، ولم يستو ووجه الشبه هو هذه الحركة السريعة المكررة . ولك أن تتأمل جوانب هذه الصورة لترى إلى أى مدى يعبث الشاعر بابن كيغلغ من خلال تصوير هذه العين التى تتحرك جفونها على هذا النحو وهو أمامها مشلول الإرادة عاجز عن السيطرة عليها ، والتحكم فيها لا يملك إلا التسليم والرضا .

---

(١) الديوان ٤/١٢٨ .

والإنسان حين يُبصر فى حياته العادية شخصا تتحرك عينه رغما عنه وبلا إرادة منه حتى من غير أن تفيض بالدمع تثير فيه نوعا من الضيق النفسى ، والرثاء ، والإشفاق ولكن المتنبى لا يكتفى بهذا الضيق وإنما يضيف إليه بعدا يضاعف من مساحته الشعورية حين يربط هذه الحركة السريعة غير المستقرة والثابتة بالمشبه به الحد الثانى للصورة وهو هذه العين المطروفة ، أو التى فت فيها هذا العصير الحامض .

والعين حين تكون صحيحة نجلاء ، تغرى باستدامة النظر إلى وجه صاحبها ، لأنها تزيد من بهائه وحسنه ، ومن خلال ألقها وبريقها ونظراتها تتحدد ملامح الشخصية وقوتها أو ضعفها . ومن ثَمَّ قالوا : له عين صقر لحدتها ومضائها ونظرته كالسهم لأنها ماضية نافذة تصيب غرضها ولا تخطئ فإذا طُرِفَتْ فإن أهدابها تتحرك فى صورة عصبية سريعة وكأن بداخلها قذى تطارده ومع محاولة طرده يتغير لون محجرها وتكاد تبتلع الحمرة بياضها وسوادها وكأنها رمداء ، وتتشكل فى صورة تصيب من ينظر إليها بغير قليل من الاشمئزاز والتقزز من رؤيتها ولك أن تتصورها حين يفت فيها هذا الحصرم بطعمه الحامض الذى يشعل فيها نارا فتتحرك فى هيستيرية (المشبه به الثانى) فى الصورة ذلك أن التشبيه مما يسمى بتشبيه الجمع الذى يتعدد المشبه به فيه دون المشبه ولك أن تقف أمام الفعل (يفت) وإسناده إلى (الحصرم) ووضعه فى العين ثم تتخيلها وقد تدغدغ هذا الحصرم غير الناضج وتفتت وجعلت هى طرفا له . ثم تظفر بالدمع مرضا ووجعا . ومنظر الدمع تشرق به العين الرمداء منظر صعب لا تطيقه النفس ، ولا تصبر على رؤيته . والمتنبى يرسم صورة مقززة عابثة لابن كيغلغ من خلال التشبيه على هذا النحو ثم يضاعف من سخريته به ، وهزئه منه وعبثه بمقدراته وضحكه عليه حتى يصوره مرة أخرى وهو يتكلم ويتحدث فيقول :

وَإِذَا أَشَـــارَ مُحَـــدِّثًا فَكَأَنَّـــهُ  قِـــرْدٌ يُقَهْقِـــهُ أَوْ عَجُـــوزٌ تَلْطِـــمُ

وما أظنك حين تطالع هذا الهجاء أو تسمعه إلا وسوف تضرب كفا بكف متكهما وضاحكا بصوت عال يهتز معه جسمك من خلال تلك الصورة التشبيهية الهزلية التى صب الشاعر فيها آلام نفسه وهزأ فيها من مهجوه والتى كانت منفذا

من المنافذ التى يسرى بها الرجل عن أوجاعه ، وهمومه حين يضيق صدره ، ويعبأ شعوره بالحقد ، والمرارة على الناس والحياة فيخلع من ذات نفسه العليلة المريضة على اللوحة التى يرسمها بالحروف والكلمات والتشبيه يتحدد هنا من خلال الحركات العشوائية فى إشارات ابن كيغلغ ومن حديثه فى انفعال ومن القرد الذى يقهقه ويضحك ومن لطم العجوز الشمطاء لوجهها على نحو يثير الشفقة بها والحزن عليها ويشترك فى رسم التشبيه مع الحركة العصبية المضطربة غير المنتظمة هذا الصوت المسموع العالى من ضحكات القرد وقهقهته ومن حديث المهجو .

والتشبيه فى نمطه التقليدى يقوم من خلال تشبيه ابن كيغلغ وهو يشير متحدثا فى تشنج وانفعال ، بقهقهة القرد أو بلطم العجوز وجهها بيديها ووجه الشبه هو الحركة والصوت وهو بهذا يكون من تشبيه الجمع الذى تعدد المشبه به فيه دون المشبه .

على أن الديوان قد ذكر وجها آخر للتشبيه مما ينحو به منحى التشبيه الملفوف (وهو ما أتى فيه بالمشبهات أولا ثم بالمشبه بعد ذلك عن طريق العطف أو غيره) فيكون قد شبه حديثه بقهقة القرد فى صوته وعدم وضوحه وإبانته وشبه إشارته فى أثناء الحديث بلطم العجوز لخدها فى الحركة المتشنجة . وعلى كل فصورة التشبيه هازئة ساخرة تمكن الشاعر فيها من تحقيق ما يهدف إليه من إهانة المهجو ومن ازدرائه له ووظف التشبيه فى إتقان الإساءة إلى المشبه والتشهير به والتشنيع عليه وما أظن ابن كيغلغ إذا كان قد ترامى إلى مسامعه قول المتنبى فى هجائه إلا وقد التفت إلى نفسه ثائرا مغيظا محنقا ، ولعله قد وقف أمام المرآة ليبصر حركة عينيه وسرعتها ومنظر الدمع وهو يسح منهما ثم وضع يديه عليها ليتأكد من أن ما قاله الشاعر قد افتراه عليه وخالف فيه الواقع . وظنى أنه قد أطال الوقفة أمام المرآة محدقا فى ملامحه وقسماته وإشاراته وهو يتحدث ويشير ليرى كيف تكون أعضاء وجهه ونبرات صوته وأمامه شبح يقض مضجعه ويصيبه بالأرق ويمنع منه النوم متمثلا فى صورة هذا القرد ، وحركاته البهلوانية ومنظر فمه وهو يمتد مفتوحا واسعا فى ضحكات عالية متواصلة وشكل تلك العجوز التى تقوس ظهرها ،

ولانت عظامها ، وتساقطت أسنانها وانطفأ بريق عينها ، وتثنى وجهها ، وذاب شحمها وخارت قواها .

وإذا كان الشعر يقوم بما تقوم به وسائل الإعلام من الذيوع وتطيير الأنباء والأخْبار مما يحدو بابن كيغلغ أن يلزم بيته ولا يخرج إلى الناس وما أرى من يستمع إلى هذا الشعر وما فيه من تشبيه ركز غرضه فى تقبيح صورة المشبه إلا وقد ضحك من الصورة الكاريكاتورية الساخرة التى أتقن الشاعر فيها فن الهجاء وأدت المطلوب منها فى التنفير من المشبه والتقزز منه هذا وقد يأتى التشبيه ليصور الحركة فى بطئها كما فى قول المتنبى[1] :

كَأَنَّمَا قَدُّهَا إذَا انْفَتلَتْ ... سَكْرانُ مِنْ خَمْرِ طَرْفِهَا ثَمِلُ

يَجْذِبها تَحْتَ خَصْرِها عَجَزٌ ... كَأَنَّه مِنْ فِرَاقِهَا وَجِلُ

والصورة فى البيت الأول تحكى الحركة المتأنية المتمايلة البطيئة النشوى تتجلى من خلال هذا القد الممشوق ، والقوام الأهيف وهو يتمايل ويتثنى فى تيه كالسكران الذى انتشى من خمر لحظها ، وإنها لفاتنة آسرة تستوى على عرش القلوب ملكه آمرة ناهية فتصرع بطرفها من يرونها فيتمايلون ويترنحون وهم سكارى بعد أن اختلبت عقولهم ، وصادت بسهمها قلوبهم ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيهها وهى تتمايل وتتثنى فى مشيتها وهى قائمة بتمايل المخمور والسكران فى مشيته حيث لا يستطيع التحكم فى إيقاع خطوه . ووجه الشبه الذى يجمع بين الطرفين هو بطء الحركة مع الميل فيها ، وقد تعجب من هذا القد المنفتل النشوان المتمايل وهو ثمل من صهباء خمرة تحكى هذه المشية التى تفعل بقلوب من يراها كل هاتيك الأفاعيل وتأخذ منها كل هذا الأخذ . ولكن ألا ينظر الواحد منا إلى المرآة وقد صفف شعره ، ونسق هندامه ، فيرى نفسه واضح السمت جميل المحيا ، مشرق الغرر متألق القسمات فيأخذه الزهو ويملؤه العجب ويظهر ذلك فى حركته ومشيته فكيف بالغيد الحسان ؟

---

(١) الديوان ٣/٢١٠ .

وفى البيت الثانى : تظهر الحركة المختلة المضطربة يمثلها التشبيه من خلال هذا الردف الثقيل ، والعجز السمين الممتلئ باللحم والمكتنز وهو يجذب صاحبته فى قوة حتى لتكاد تعجز عن القيام من قعود .

يَجْـذِبها تَحْـتَ خَصْـرِها عَجـزٌ  كَأَنَّـه مِـنْ فِرَاقِهَـا وَجِـلُ

وإنك لتطالع هذه المعركة الدائرة من خلال هذا العجز الثقيل الذى يجذبها إليه ويشدها نحوه وهى تحاول أن تنهض فيرتعد ويضطرب ويوحى إليك هذا المشهد مصورا بظل الكلمة وبدلالتها أن هذا الردف ثقيل وثقيل جدا ولكن فى دقة واستواء وهو فى حركته مضطرب مذعور تضطرم النار فى حنايا ضلوعه خوفا من الفراق وسهده ، وعذابه هذا العجز الثقيل فى حركته المرتجة من شدة ثقله وكثرة لحمه يشبه فى حركته بحركة المضطرب الخائف الذى تعتريه رعدة الخوف والجامع بين الطرفين هنا هو هذا الاهتزاز والاضطراب فى الحركة .

وقد ترى أن التعبير بالخائف فى الحد الثانى من الصورة فى مقابل المشبه غير مقبول ذوقا ولا مستساغ لأن الشاعر يتغنى بجمال المرأة وبعظم أردافها والحديث عن روعة الجمال لا يلائمه الحديث عن الرعشة والخوف . وفى تقديرى أن النظر المتمكن فى الصورة التشبيهية يدفع هذا الظن ذلك أن المقصود تشبيه الأرداف فى حركتها ، واضطرابها ، ورجرجتها بالاضطراب والرعدة والرعشة فى حركة الخائف . والحركة على هذا النحو فى الإنسان الخائف المذعور أوضح من أن تكون محلا لخلاف . وقديما كانوا يمتدحون المرأة بضمور خصرها وبعظم الأرداف وثقلها وامتلاء الصدر وانتفاخه ويرون فى حركة عجز المرأة وارتجاجه مثارا للفتنة ودليلا على الرغبة فيها .

هذا وقد تجد مماثلة بين الحركة هنا فى هذا التشبيه وبين الحركة فى تشبيه مشية المرأة المتمايلة ومشية السكران . ولكنى أرى أن الحركة فى اضطراب الردف ورجرجته ورعشة الخائف وارتعاده تفترق عن حركة المرأة المتمايلة فى مشيتها والسكران فى ترنحه المشية المتمايلة فى المرأة والسكران فيها مشى ولكن فى بطء والحركة فى الردف والخوف حركة من غير مشى قد يتشابهان ولكنهما لا يتماثلان.

وقد تكون الحركة فى التشبيه واضحة كقوله[1]:

أدَرْنَ عُيُونـــاً حَـــائِرَاتٍ كَأَنَّهَـــا  مُرَكَّبَـــةٌ أحـــداقُها فَـــوْقَ زِئْبَـــقِ

يتحدث الشاعر عن لحظة الوداع والفراق ويصف عيون الحبيبات المفارقات وما يبدو فيهن من حيرة واضطراب . فهن يبعثن بنظراتهن الوسنى فى كل اتجاه ، ويدرن بها يمينا وشمالا فى لهفة وشوق واضطراب وعدم ثبات واستقرار .

حتى ليخيل لمن يراها أنها عيون ركبت أحداقها فوق زئبق فهى مهتزة حائرة لا تسكن ولا تفتر .

وحين تَتَهَّدى إلى عمق الشاعر ، ترى أنه يقصد إلى تشبيه حركة هذه العيون فى اضطرابها ، وحيرتها ، وعدم سكونها فى مواقف الوداع بحركة العيون التى وضعت أحداقها على الزئبق فهى غير ساكنة ولا ثابتة وإنما تهتز باهتزازه وتضطرب باضطرابه ووجه الشبه هو هذه الحركة المضطربة التى لا تثبت ولا تستقر . (والزئبق) أوضح مثالا لتلك الحركة المضطربة التى لا تثبت فى اتجاه وإنما تتأرجح صعودا وهبوطا ارتفاعا وانخفاضها فإذا أضفت إليه الفعل (أدرن) وما يوحى بدلالته من تواتر الحركة وتتابعها من غير ثبات ولا استقرار والصفة (حائرة) التى تحكى بصورتها وبدلالتها الحيرة والتوزيع والشرود والشتات عرفت كيف تمثل الصورة الحركة المضطربة أحسن تمثيل .

وقد يمثل التشبيه الحركة فى اتجاه واحد كقول الشاعر[2] :

وأَمْشِـى كَمَـا يَمْضِـى السِّـنَانُ لطِيَّتِـى  وأَطْـوِى كَمَـا تَطْـوى المُجَلَّحَـةُ العُقْـدُ

والمتنبى يفتخر بنفسه ويبين أنه يعرف هدفه ، ويمضى إليه فى سرعة وصبر غير مبال بما يتعرض له من المخاطر ، والشدائد ، لأنه جلد مَاضٍ فهو كالسنان فى سرعته ونفاذه ، وإصابة هدفه ، وكالذئب فى صبره على الجوع وتحمل أذاه .

والتشبيه فى الحركة ينعقد من خلال تشبيه مشبه إلى غرضه بمِضى السنان إلى هدفه لا يخطئه ووجه الشبه هو الحركة فى اتجاه الغرض والوصول إليه من غير

---

(١) الديوان ٢/١٠ .  (٢) المرجع السابق ١/٣٧٦ .

التواء والمشى والمضى من واد واحد ، فكلاهما قطع مسافة ولكن الفرق بينهما فى الكم والدرجة ومضيه إلى المكان التى تطوى إليه الرواحل يكتسب (من المشبه به) مسار حركته ومعروف أن حركة السنان إنما تكون إلى مكان الضريبة فى اتجاه واحد لا تخطئه مما يجعل (المشبه) يكتسب مسار الحركة (فى المشبه به) أما تشبيه صبره على مشاق الرحلة وما تستتبعه من جوع وتجلد بهذا النوع من الذئاب (المُجَلَّحَةُ العُقْدُ) فى الصبر والتحمل فليس من هذا الباب ومعروف أن التشبيه فى البيت يدخل تحت ما سمى بالتشبيه المفروق وهو ما تعدد طرفان وجمع كل طرف مع صاحبه[1] .

وقد يأتى التشبيه ليصور الحركة بعد السكون كما فى قوله يصور حال عينيه قبل فراق الأحبة وبعده[2] :

فَكَانَ مَسِيرُ عِيسِهِمْ ذَمِيلاً ... وَسَيْرُ الدَّمْعِ إثْرَهُمُ انهمالا

كَأَنَّ العِيسَ كَانَتْ فَوْق جَفْنِى ... مُنَاخَاتٍ فَلَمَّا ثُرْنَ سَالاَ

فإذا تجاوزت البيت الأول الذى يئن فيه الشاعر ويتوجع ودمعه يسبق عيس الأحبة التى تمضى بهم بعيدا عنه وهو ولهان يشكو بثه وحزنه وأتيت إلى البيت الثانى الذى يصور فيه حاله فى وقت وجود الأحبة ، وبعد رحيلهم ، ويبث فى الصورة وجده وأساه ، وبؤسه ، ورضاه وسخطه ، فيشبه عينيه من عدم البكاء فى وجود الأحبة وفى حضرتهم بالبكاء بعد رحيلهم وغيابهم بحال جفونه وقد كانت الإبل مناخة فوقها تمسك بكاءه ، وتمنع ماءه ، فلما أثاروها للرحيل فاضت بالدمع عيناه ، فى وجه شبه هو حال الشىء يجمد ويسكن فى وجود شىء آخر ، ويسيل ويتحرك فى عدم وجوده .

وفهم التشبيه على هذا النحو يحتاج إلى نوع من التأنى والرفق فى محاولة التسلل إلى نفس المنشئ ، والوقوف على عرضه ، واستبطان حسه ومعاملة الصورة على أساس من ذلك .

---

(١) المطول ١/٣٣٨ .

(٢) الديوان ٣/٢٢١ .

ودلالات التشبيه على الحركة بعد السكون يظهر من استخدام ألفاظ (مناخات ثرن ، سال) .

كما يأتى التشبيه ليمثل نوعا من الحركة وهى الحركة المتعرجة المتداخلة كما فى قول المتنبى يمدح أبا العشائر[1] :

كَـــأَنَّ تَلَـــوِّىَ النُّشَّـــابِ فيـــهِ تَلـوِّىَ الخُـوصِ فـى سَـعَفِ العِشَـاشِ

يصف الشاعر ممدوحه بأنـه فارس معلم ، وبطل شجاع ، لا تسقط من يده الراية ، وهو فى المعارك قائدها المجلى يتوسط أرض الموت والقتال مرتديا لباس الحرب ما يريد رأسا إلا قطعه ، وكأن المنايا طوع أمره فإذا تساقطت عليه السهام فإنه يتلقاها بصدره وجسده المتترس بآلة الحرب فترتد متقوسة منحنية وتتطاير وتتلاشى ولا تترك فيه أثرا وكأن هذا النشاب الذى طعن به وانحنى وتقوس خوص النخل الملتوى فى سعف العشاش . (والتشبيه يقوم من خلال تشبيه تلوى النصال التى يرمى بها الممدوح فلا تؤثر فيه ولا تصيبه لأنه لابس لامته ، وترتد من على جسده منحنية متقوسة تلوى وتقوس أوراق النخيل على أغصانها ووجه الشبه هو هيئة هذه الحركة وشكلها والتشبيه يحكى شجاعة هذا الفارسى الذى ترتد عنه المضارب المتقوسة بعد أن تصير إلى هذا النحو خوص النخيل الضعيف الملتف على غصنه والحركة المتقوسة المنحنية تظهر من خلال تلوى النشاب وتلوى الخوص فى سعف العشاش .

وقد تأتى الصورة التشبيهية لتصور الحركة والسكون فى تشبيهين منفصلين كما فى قول الشاعر يصف كلب صيد[2] :

يعـــدو إذَا أَحْـــزَنَ عَـــدْوُ الْمُسْـــهِلِ إِذَا تَـــلاَ جَـــاءَ المَـــدَىَ وقَـــدْ تُلِـــى

يُقْعِـــي جُلُـــوسَ البَـــدَوِيَّ الْمصَـــطَلِى بَـــأَرْبعٍ مَجْدُولَـــةٍ لَـــمْ تُجْـــدَلِ

ففى البيت الأول يصفه بالسرعة فى مشيه وأنه يمضى مسرعاً فى الأرض الصعبة كما يسير فى الأرض السهلة فلا يتأثر وأنه يسابق غيره من الكلاب فيسبقهم

---

(١) الديوان ٢/٢١٠ .

(٢) المرجع السابق ٣/٢٠٤ .

فإذا كان فى أول الشوط تاليا فإنه يزيد من عدوه ليجىء آخر الشوط وقد سبقهم فيصير متبوعا بعد أن كان تابعا متأخرا .

ويبدو التشبيه من خلال الحركة فى تشبيه عدو الكلب فى الأرض الصعبة بعدوه فى الأرض السهلة ، ويجمع بين الطرفين سرعة الحركة مع سلاستها والمشبه هو المصدر المبين لنوع الفعل (يعدو) أى يعدو عدوا كعدو المسهل وأداة التشبيه محذوفة .

وفى البيت الثانى : يفتن المتنبى فى تصوير هيئة الكلب فى سكونه وجلسته ويجلو هذه الصورة فى هيئة البدوى الجالس والمكب بوجهه وبأعلى جسمه على النار مباعدا بين ركبتيه ، ليستوفى ما يستطيع من الدفء لأكثر أعضاء جسمه ويتحقق التشبيه ، من خلال تصوير هيئة إقعاء الكلب : وإقعاؤه بأن يجلس على إليته ناصبا ركبتيه مادا ذراعيه بهيئة البدوى أمام مدفأة جالسا على إليته ناصبا ركبتيه مادا ذراعيه مقبلا برأسه وصدره على النار ليستمتع بدفئها وحرارتها فى هدوء وأنت ترى السكون يطالعك فى تلك الصورة من خلال السكون الذى تلاحظه واضحا فى موقع كل عضو من أعضاء الكلب فى مكانه ومن هيئته العامة فى إقعائه إذا لم يزعجه مزعج ، أو يثيره مثير ، كما لا يخفى عليك من صورة هذا المتدفئ المصطلى بالنار فى جلوسه ، وسكون الحركة فى أعضائه ويجمع بين الحدين فى الصورة هذه الهيئة الساكنة المتمثلة فى اقتران سكنات كل عضو من الأعضاء ، ووقوعه فى موقعه الخاص فى صمت ومن غير ضجيج ولا حركة .

ولم يخف الإمام عبد القاهر إعجابه بالتشبيه فى هذا البيت وبما هو على شاكلته فقال معلقا على صورته : «فقد اختص هيئة البدوى المصطلى فى تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ومواقعها فيها ، ولم ينل التشبيه حظا من الحسن إلا بأن فيه تفصيلا من حيث كان لكل عضو من الكلب فى إقعائه موقع خاص وكان مجموع تلك الجهات فى حكم أشكال مختلفة تؤلف فتجىء منها صورة خاصة»[1].

---

(١) أسرار البلاغة ٢/٣٥ .

ومن التشبيهات البصرية التى تدل على السكون من خلال الصورة التحليلية قول المتنبى[1] :

وَطَـرْفٌ إن سَـقَى العُشَّـاقَ كَأسًـا ... بِهَـا نَقْـصٌ سَـقَانِيهَا دِهَاقَـا

وَخَصْـرٌ ، تَثْبُـتُ الأَبْصَـارُ فِيـهِ ... كَـأنَّ عَلَيْـهِ مِـن حَـدَقٍ نِطَاقَـا

ففى البيت الأول حديث عن اللحظ المسكر ، وما صنعه بعقل الشاعر .

وفى البيت الثانى حديث عن الخصر الذى ينفث سحره فيذيب الحشا ، ويرمض الجوانح ويبعث فتنته فيتلاعب بالألباب وتتعلق به النظرات ، ولا تغادره ، العيون . . والشاعر يصوره فى دقته ، ورقته حيث يجذب نحوه الأنظار المبهورة ويشد إليه الأبصار المشدوهة ، وهى تحوطه بسهامها المصوبة ، وتعتلج معه عواطفها ولا تملك أمام روعته وجماله إلا أن تثبت فيه صريعة هواه وأسيرة فتنته وتضرب حوله نطاقا من أحداقها المفتونة ومحاجرها المأخوذة وصورة النطاق الذى يتكون من حدق المعجبين ، ومن نظرات المبهورين صورة عجيبة تناسب هذا الخصر العجيب ، وتَحْظَى بشرف ملازمته ومصاحبته .

والمتنبى : يتحدث عن هذا الخصر الشفيف فيشبهه فى دقته وجماله وحسن استوائه ، وفتنته الخالبة الساحرة ، وقد أحاطت به الأبصار وتعلقت به القلوب ، والتهمته العيون ، وتثبتت فيه المحاجر بهيئة النطاق الذى يلتف حول وسط الحسناء فى جلال وسكون ، والجامع بين الطرفين : هو صورة السكون التام الناشئ من وجود الشىء يحيط به شىء آخر ويثبت فيه فى سكون تام وتوافق وانسجام .

وإنك لتكاد تبصر فى تلك الصورة البصرية كيف يحف بها السكون العميق من خلال الأفواه الفاغرة ، والنظرات المحدِّقة المبهورة التى خرت قتيلة هذا الجمال ، وهوت شهيدة . . بعد أن أحاطت به فى صمت ، وتملته وحدقت فيه فى سكون ، وما أظن شيئا يشيع الدعة ، والدهشة ، والتروى والثبات فى هذا الموقف كما يشيعه الفعل (تثبت) وإسناده إلى (الإبصار) والحكم به على هذا الخصر وما يفيده التنكير فيه من التعظيم والإجلال والتفرد ، فهو خصر عظيم يتفرد بالجمال لا يشبه به غيره ، ولا يشاركه فيه سواه .

---

(١) الديوان ٢/٢٩٦ .

وقد تأتى الصورة فى شعر المتنبى لتصور الحركة السريعة فى التشبيه بعد تجسيد المعنوى وتجسيمه كما فى قوله[1] :

ذَكَرْتُ وَصْلاً كَأَنْ لَمْ أَفُزْ بِهِ وَعَيْشاً كَأَنى كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبَا

والبيت نفثة من نفثات صب مشوق ، يحمل زفرات كبد ناضجة محترقة ، ودمعة حارة ساخنة تنفست بها ذكرى الصبابة والهوى ، وأنة حبيسة شاجية أطلقها عان معذب يشكو بثه وأساه ، ويتوقف أمام الربع وفى قلبه هوى عاصف ، وفى خياله ذكريات حبيبة ، وتلهمه جراحه أن أوقات الطيب والمسرات تمضى فى سرعة ، وتنتهى فى ومضة ، وكأنها ما كانت وما قامت وأن العيش الهانى الرغيد يتقضى على هذا النحو وكأنه طريق قصير يقطعه الإنسان وثبا لا مشيا ولا حتى عدوا .

والمتنبى يشبه أيام الوصل فى تقضيها ، وسرعة انتهائها ، حتى ما يشعر الإنسان بها ، ولا يحس بمرورها بعدم وجودها ، والفوز بها ويجمع بين الطرفين (السرعة السريعة التى تجعل الإنسان يستشعر ما كان وكأنه لم يكن) .

وفى الشطر الثانى وهو موطن الشاهد لحسية الوجه فيه يسترجع ماضيه الحلو فيشبه نفسه حين كان يعيش أيام الوصل برغدها وطيبها وكيف قضاها ، وانتهى منها فى سرعة لم يحس بها يقطع الطريق القصير والانتهاء منه وثبا ووجه الشبه هو الحركة السريعة ، والتشبيه فى هذا البيت مما يسمى عند المتأخرين بالتشبيه المفروق وهو ما تعدد فيه الطرفان وجمع كل طرف مع صاحبه[2] .

وأنت ترى الحركة السريعة تطل عليك من خلال التعبير بالوثب وما فيه من معنى القفز الذى يحتاج لاستجماع الطاقة والقوة والتهيئة البدنية لاستمرار الانطلاق فيه مما يدل على الحركة السريعة التى تكون أشبه ما تكون بحركة السهم كما ترى كيف تكون أيام المسرات ، والعيش الرغيد الطيب طريقا قصيرا يقطعه الإنسان فى أقصى سرعة .

---

(١) الديوان ١/٥٨ .

(٢) المطول ص ٣٣٨ مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ .

وقد يأتي التشبيه ليصور الحركة المهتزة المضطربة فى الجوامد بعد تشخيصها وخلع صفة الأحياء عليها كما فى قوله[1] :

والطَّعْنُ شَزْرٌ والأَرْضُ وَاجِفَةٌ  كَأَنَّمَا فِي فُؤَادِهَا وَهَلُ

فتشبيه الأرض فى رجفتها وخوفها بعد خلع صفة الحياة عليها بالخائف المرتعد يمثل مثل هذا النوع من الحركة .

**الصورة اللونية :**

البصر نافذة من نوافذ إدراك الأشياء وتصويرها ، وله أثر متميز فى صياغة التشبيه والشاعر قد يتوسل بمختلف الألوان والأصباغ ليبدع صوره التى تجمع بين الشكل واللون وقد جاء التشبيه فى شعر المتنبى ليمثل الحمرة الرقيقة كما فى قوله[2] :

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قُتِلْتُ شَهِيدٍ  بِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ

فالمتنبى يتحدث عن صرعى الغوانى الذين استشهدوا فى ميادين الهوى وتباريح الصبابة ، ويبين أنهم كثرة كثيرة ، ويضفى عليهم صفة الشهادة كشخصه ، فهم شهداء كاستشهاده ، وما كان استشهادهم إلا بسبب تلك النحور البيض الطويلة ، والخدود الحمراء المتوردة ، وتشبيه من قتل فى الحب بقتله هو الآخر فى هذا الميدان ليس من هذا الباب الذى يمثل اللون الأحمر الرقيق وإنما جاء ذلك اللون ممثلا فى ورد الخدود (وورد الخدود) تشبيه أضيف فيه المشبه به إلى المشبه كلجين الماء ، فهو يشبه الخد الأسيل بالورد فى لونه ونقائه ومثل هذا التشبيه يخيل إليك من خلال صيغته وتركيبه أنه جعل للخدود وردا وقد يأتى اللون الأحمر ليمثل غزارة الدماء ، والهول الذى يطل من خلال المعركة كما فى قول المتنبى[3]:

والطَّعْنُ شَزْرٌ والأَرْضُ وَاجِفَةٌ  كَأَنَّمَا فِي فُؤَادِهَا وَهَلُ

قَدْ صَبَغَتْ خَدَّهَا الدِّمَاءُ كَمَا  يَصْبُغُ خَدَّ الخَرِيدَةِ الخَجَلُ

---

(١) الديوان تحقيق العكبرى ٢١٤/٣ .

(٢) الديوان ٣١٣/١ .

(٣) المرجع السابق ٢١٤/٣ .

فإذا تركت البيت الأول حيث الطعن عن يمين وشمال والأرض المرتعدة الخائفة وأتيت إلى البيت الثانى لرأيت كيف يصور الشاعر طوفان المعركة ، وبشاعتها حين يشبه وجه الأرض وقد لونته الدماء القانية بلونه بوجه العذراء الحيية يعتريها الخجل فتتدفق الدماء إلى وجنتيها وتلونهما بلونها ويجمع بين الطرفين اللون الأحمر .

وانظر كيف تدب الحياة فى أوصال الأرض وتراها وهى شاخصة وجهها مصبوغ بحمرة الدم . واعجب من هذه الخريدة العذراء حين يصيبها الخجل واختيار العذراء هنا له أبعاده فى أعماق الرجل وفى تلوين الصورة التشبيهية فإن الفتاة البكر حين تتعرض لمواطن الخجل تكون استجابتها لتأثيره شديدة وعلى قدر حيائها . ويظهر ذلك أكثر ما يظهر احمرارا شديدا فى خدها مما ينعكس على المشبه فيصور ضراوة المعركة وغزارة الدماء وكثرة الأشلاء والضحايا وقد يتوسل باللون الأحمر ليعبر عن قدرة الناقة على الصبر وتحمل مشاق الرحلة يقول فى ذلك[1]:

فَأَتَتْكَ دَامِيَةَ الأَظَلِّ كَأَنَّمَا  حُذِيَتْ قَوَائِمُهَا العَقِيقَ الأَحْمَرَا

فهو يصور الناقة وقد احمرت خفافها من كثرة الأسفار ، ومن طول السير ووعورة الطريق ، فيشبه تأثير السير فى خفافها ، وتلوينها بلون الدم باحتذاء قوائمها للعقيق الأحمر فى اللون والشكل . والتشبيه ينفذ من خلال هذه الصورة إلى المزاوجة بين قدرة الناقة وصبرها على أعباء الرحلة والسفر وبين قدرته هو الآخر على ذلك فهى وسيلته إلى قطع الفيافى والقفار وأدواته فى الرحلة وتحمل القسوة وهجير الصحراء .

وقد يعبر التشبيه عن درجة الحمرة فى اللون كما فى قوله[2]:

وَجَرَى عَلَى الوَرَقِ النَّجِيعُ القَانِى  فَكَأَنَّهُ النَّارنج فى الأَغْصَانِ

يصور الشاعر غزارة الدماء التى كانت تتدفق وتجرى بها مهج القتلى وكيف أن الدماء لونت الأوراق التى كانت تقع عليها فصارت بلون النارنج والتشبيه يقوم من خلال تشبيه أوراق الأشجار وقد احمرت حين جرى عليها الدم فتلونت بلون النارنج فى أغصانه فى اللون وقد لا تعجب بهذا التشبيه وترى فيه أنه لم يحقق الإصابة فى

---

(١) الديوان ٢/١٦٩ .  (٢) المرجع السابق ٤/١٨٤ .

جهة الاشتراك مما عُدَّ بسببه من التشبيهات الباردة [1] ولن يشفع له أنه أراد أن يحدد درجة الحمرة التى التقى عليها الطرفان والتى تفهم من شرح مفردات الصورة فالنجيع هو الدم الأحمر القانى سواء أكان هو الدم الطرى أم كان دم الجوف والنارنج ثمر فى شكل البرتقال ولونه والقيد فى المشبه به (فى الأغصان) يفيد أن لونه لم يتغير بسبب القطع ولم تنطفئ فيه هذه الحمرة .

وقد يأتى التشبيه باللون الأحمر ليمثل الحمرة الصافية كما فى تشبيه الدم بالتوت فى لونه كما قال الشاعر :

يُـرَوِّى بِكَالْفَرصَـادِ فِـى كُـلّ غَـارَةٍ  يَتَـامى مِـنَ الأَغْمـادِ بِيضًـا ويُـوتِمُ

والفرصاد هو التوت ، والمشبه محذوف (ويتامى) الذى وقع عليها فعل الفاعل كناية عن السيوف ، وإنما عبر عنها بذلك لأنها جردت من أغمادها فصارت فى حكم اليتامى لأنّها فقدت ما كان يؤويها ويحوطها كالوالدين . والشاعر يشبه لون الدم الذى ترتوى منه السيوف الظامئة بلوم التوت فى حمرته حين يصف ممدوحه بأنه شجاع فاتك وأنه يعرف طريقه إلى اختصار أعمار الأعداء حين يطيح بالرءوس ويباعد بينها وبين أجسادها فى غاراته المتلاحقة ويروى سيوفه البيض بدم يشبه التوت فى لونه وأنت ترى من خلال استخدام المتنبى للون الأحمر فى صوره التشبيهيه أنه يدور غالبا فى مجال الحديث عن الحرب ، واتصاله بأداتها كالسيوف المرهفة ، والقنا المشتجرة والرماح الطاعنة حين تعمل فى الرقاب ، وتعل من مناهل الدماء . وأنه يتوسل بالدم ليجلى هذا اللون الذى يفرغ فيه رغبته النفسية المعبأة والمشحونة بأحاسيسه فتأتى صورة ممثلة لشعوره وللخط الذى أخذ به نفسه فى حياته فلا تنفصل أو تنقصم عنه ، فهو يرى فى انصباب الدماء ، وإراقتها ، وتدفقها ، سبيلا إلى تحقيق مطامحه وأحلامه لأنه عن طريقها يزيح من طريقه كل ما يعترض أمانيه ومطامعه فيصل إلى هدفه . وحتى إذا توسل بالدم ليبرز من خلاله اللون الأحمر فى غير مواطن الحرب والنزال فإنه لا يبعد كثيرا عن هذا الميدان

---

(١) المثل السائر لابن الأثير ص ١٦١ طبعة المطبعة البهية .

حين يأخذ منه مادة للحديث عن نفسه والافتخار بها ، وأنه رحالة جوّاب لا يعبأ بأهوال السفر ، ولا بمخاطر الطريق . وأن ناقته التي تصاحبه وتلازمه قد أثر السير في خفافها وأدماها فصارت قوائمها في لون العقيق الأحمر .

نعم قد ترى شيئا من الرقة في توسله بهذا اللون كما في تشبيه (ورد الخدود) ولكنه قليل ، لأن الجانب الوجداني في حياته لم يكن بالمهم فهو ليس ممن تستهويهم العواطف ، أو تقتادهم المظاهر اللّينة الرقيقة . ومن هنا كانت تغلف الصورة البيانية عنده بجوه النفسي الذي تغمره المطامع وحتى إذا أتى بهذا القليل فإنه يسكب من نفسه القلقة المتوترة عليه .

وحين تدرس الصورة التشبيهية متصلة بالسياق ومرتبطة بالجو العام للصورة الكلية في القصيدة يتحقق إذا صح الذي ستنتجه أنه كان يستثمرها ويسخرها لتحقيق ذاته ، ولتغليب هذا الجانب فيها فمن يقتل من خدود الغواني المتوردة كما سبق في قوله :

كَـمْ قَتِـيلٍ كَمَـا قُتِلْـتُ شَـهِيدٍ بِبَيَـاضِ الطُّلَـى وَوَرْدِ الخُـدُودِ

يقتل كما قتل هو فغيره تابع له ولاحق به . وانظر إلى استخدام لفظ (القتل) وما له من ظلال نفسية تستمد غورها وبعدها من أعماق الرجل قد يكون استخدامه هنا جميلاً ولكن دوران هذا اللفظ على لسانه لم يأت منفصلاً عن شعوره ورغبته .

انظر إليه وهو يحاول أن يمزج هذا اللون الأحمر بقليل من الرقة حين يستخدمه مع الغدْران ومع الريحان وهو تحت الشقائق فيجعله ممثلاً في الدم يطغى على ما تحته من ألوان فلا يكاد يظهر غيره بعد أن اختفى وغاب ما سواه فهو يصور بحار الدم المتدفقة من نحور الأعداء ورقابهم وهي تشق مجراها إلى الغدران المخضرة بما فيها من طحالب فتغلب حمرة الدماء خضرة المياه وتعلو عليها ولا تتلاشى فيها وتأتي خيول المنتصرين لتشرب منها وكأنها تأبى الشرب من الماء وترفضه إلا إذا ركضت فيه بعد أن يكون قد احمر من انصباب دماء الأعداء وصار كالريحان تَحْت الشقائق ، يقول أبو الطيب[1] :

وَلاَ تَـرِدُ الغُـدْرَان إلاَّ وَمَاؤُهَـا مِـنَ الـدَّمِ كَالرَّيْحَـانِ تَحْـتَ الشَّـقَائِقِ

---

(١) الديوان ٢/٣٣ .

(والشقائق) : جمع شقيقة وهو نور أحمر ينسب إلى النعمان ، والمتنبي يشبه ماء الغدران الأخضر تعلوه حمرة الدماء بلون الريحان يعلو عليه نور الشقائق الأحمر والجامع بين الطرفين صورة لون أحمر يظهر فوق لون أخضر .

وقد يأتى التشبيه ليمثل اللون الأحمر ممتزجا باللون الأبيض من خلال ما يدل عليهما كما فى قوله[1] :

رَكَـضَ الأَمِيـرُ وَكَـاللُّجَينَ حَبَابُـهُ وَثَنَـى الأَعِنَّـةَ وَهْـوَ كَالعِقْبَـانِ

واللجين الفضة ، والمتنبى يصور حال النهر قبل القتال وبعده وخيل الأمير تركض فيه وهى تعبره إلى عدوها لتحاربه ، وتقضى عليه ، ويبين أن حبابه : ما يعلوه من زبد وهو دوائر صغيرة مستديرة كالفضة فى لونها وبياضها فما كاد الأمير الهمام الشجاع يثنى أعنة خيله بعد أن ألحق بعدوه شر هزيمة وأجرى الدماء من مقاتله بحورا حتى صار لونه كالذهب .

والمتنبى يشبه حباب النهر قبل القتال وخيل الأمير تركضه بالفضة فى لونها الأبيض الصافى المعروف كما يشبهه بعد القتال الذى لم يستمر طويلا بمجرد ثنى الأعنة للخيول وقد تفجرت دماء الأعداء وجرت فيه بالذهب فى لونه والتشبيه من النوع المفروق الذى جمع فيه كل طرف مع صاحبه .

وقد تأتى الصورة اللونية وقد امتزج فيها البياض بالحمرة فخرج منهما بعد هذا الامتزاج لون ثالث هو اللون الأصفر كما فى قوله[2] :

قَالَـتْ وَقَـدْ رَأَتَ اصْـفِرَارِى مَـنْ بِـه ؟ وَتَنَهَّـدَتْ فَأَجَبْتُهَـا المُتَنَهِّـدُ
فَمَضَـتْ وَقَـدْ صَـبَغَ الحَيَـاءُ بَيَاضَـهَا لَـوْنِى كَمَـا صَـبَغَ اللُّجَـيْنَ العَسْـجَدُ

والبيت الأول يطوى فى أعماقه قصة قصيرة حيت تغير لونه بعد أن لعبت بقلبه برحاء الحب ، وأنضجت كبده نار الجوى ، وأسقمت جسده صبابة الوجد . فلما بصرت به حبيبته سألته وقد جزعت لمصابه . ماذا بك ومن الذى جنى عليك؟

---

(١) الديوان ١٧٨/٤ .

(٢) المرجع السابق ٣٢٩/١ .

فصرت إلى ما أرى ، وتنهدت تنهيدة عميقة . فأجابها : أنت قاتلتى إن الذى اختبل عقلى ، وغير لونى ، وأسقم جسدى ، هو أنت ، فلما سمعت رده اعترتها رعدة الخوف من أن تطالب بثأره بعد أن يتسمع الرقباء والواشون بها فيفتضح أمرها ، وينكشف سترها ، حينئذ صبغ الحياء لونها الأبيض فصار فى لون صاحبها المصفر ، كما يصبغ الذهب الفضة . وحذف المسند لوقوعه فى كلام واقع جوابا لسؤال من به؟ هو الذى نسج خيوط هذه الفضة المطوية .

والشاعر يشبه صورة وجهها وقد تصعدت الدماء إليه من الخوف والحياء وامتزجت به فمال إلى الصفرة بصورة الذهب يمتزج بلون الفضة فيضرب إلى الصفرة ووجه الشبه هو الصورة التى تشكلت من امتزاج اللون الأحمر باللون الأبيض وما نتج عن هذا من لون يميل إلى الصفرة .

وقد يأتى التشبيه متوسلا باللون الأبيض حين يقع على اللون الأصفر فيشكله فى شكل جديد كقول المتنبى[1] :

سَفَرتْ وَبُرْقَعُهَا الفُراقُ بِصُفْرَةٍ ... سَتَرَتْ مَحَاسِنُهَا وَلَمْ تَكُ بُرْقُعَا

فَكَأنَّهَا والدَّمْعُ يَقْطُرُ فَوْقَهَا ... ذَهَبٌ بِسِمْطَى لُؤْلُؤٍ قَدْ رصّعا

وأنت ترى هنا الحسناء وقد سفرت بعد أن ألقت بخمارها وكساها الحياء بصفرته جزعا من الفراق وخوفا من عذابه والحياء هنا يقوم مقام البرقع فيستر مفاتن وجهها ولا يكشف جماله على حقيقته ويبلغ بها التأثر غايته ولا تتمالك دموعها فتتقاطر من عينيها على خديها اللذين ضربتهما صفرة الحياء فلونتهما بلونها فصارا وكأنهما الذهب قد رصع بسمطين من اللؤلؤ والتشبيه التمثيلى ينعقد من خلال تشبيه صورة وجهها وعليه قطرات الدموع بصورة الذهب وقد رصع بحبات اللالئ ويجمع بين الطرفين فى التشبيه هذه الصورة صورة شىء أصفر تظهر عليه أجسام بيضاء صغيرة المقدار مستديرة الشكل وهى متفرقة .

وقد يأتى التشبيه متوسلا باللون الأبيض كما فى قول المتنبى[2] :

حِسَانُ التِّنِّسِ يَنْقُشُ الْوَشْىُ مِثْلَهُ ... إذَا مِسْنَ فى أجسامهن النواعم

---

(٢،١) الديوان ٢/٢٦١ .

وَيَبْسِمْنَ عن دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ كأنَّ التَّرَاقِي وَشِّحَتْ بالمبَاسِمِ

وإذا تخطيت الحسان بأجسادهن النواعم ، والوشى المسيغ إليهن بما يتركه على أبشارهن من النقش على مثله وشكله ونظرت إلى تلك الأسنان المصفوفة فى انتظام واستواء فى ثغورهن الجميلة الدقيقة وكأنها الدر فى جماله ونقائه وبياضه رأيت كيف ينظمن منه قلائد يتحلين بها . واعجب من هذه التراقى التى تتزين وتتوشح بتلك الثغور البيضاء ، والمتنبى يستعير الدر للأسنان ثم يشبه به القلائد فى البياض والنقاء ويشبه التراقى وهى تتحلى وتزدان باللآلئ بالتراقى التى تتوشح بالمباسم والثغور وبما فيها من أسنان شبيهة بالدر ويظهر اللون الأبيض فى نقائه وصفائه من خلال الدر والأسنان .

وقد يتوسل التشبيه باللون الأسود كما فى قول الشاعر يصف شعر حصانه[1]:

حَالِكٌ كالغُدَافِ جَثْلٌ دِجُوجِيٌّ أثِيثٌ جَعْدٌ بِلاَ تَجْعِيدِ

(والحالك) هو الشديد السواد (والغداف) الغراب الأسود و(الجثل) الكثير الملتف و(الدجوجى) المظلم و(الأثيث) الكثيف والشاعر يصف شعرا بأنه بلغ الغاية فى شدة السواد وأنه كثير ملتف مجعد خشن .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الشعر بالغداف الأسود فى لونه وسواده ثم تتلاحق الأوصاف وتتابع حتى تؤكد وصف المشبه بالسواد وتحديد مقداره فلا يكتفى الشاعر بأنه حالك ولا بأنه يشبه الغراب الأسود ولكنه يؤكد هذا بما يفيد شدة سواد اللون فى الشعر فيصفه بأنه دجوجى مظلم ، وأنه كثير ملتف مجعد والشعر المجعد يكون غليظا وبذلك يضيف للشعر مع شدة سواده وصفه بالجعودة والخشونة والغلظة .

ومن التشبيه الذى يتوسل باللون الأسود والأبيض قوله فى رثاء جدته لأمه[2] :

حَرَامٌ عَلَى قَلْبِى السُّرُور فَإِنَّنِى أعُدُّ الَّذِى مَاتَتْ بِهِ سُمًّا

تَعَجَّبُ مِنْ خَطِّى وَلَفْظِى كَأَنَّهَا تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أَغْرِبَةً عُصْمَا

---

(١) الديوان ٣١٧/١ .

(٢) المرجع السابق ١٠٤/٤ .

فإنه يحرم على نفسه السرور بعد أن اختطفت المنية جدته وتجرع كئوس الأسى لفراقها واصطلى نار المر والحرمان لمصرعها ويشرح حال جدته النفسية وشعورها وهى تلتهم سطور خطابه إليها ، وتتملى ألفاظه ومعانيه فى دهشة وغرابة ولعلها كانت يائسة من وجوده ومن معرفة أخباره فلما جاءتها رسالته فَضَّتْها على عجل ومضت تحدق فى الخط الذى كتبت به وتدير ألفاظها فى خاطرها وترى فى صورة حروفها على الورق الأبيض الذى خطت عليه صورة هذا الغراب الأعصم الذى فى ريشه وقوائمه بياض وهو نوع من الغربان نادر الوجود .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه لون البياض الذى يوجد بين سطور الرسالة المكتوبة بمداد أسود بلون ريش الغراب البيضاء تظهر فى الغراب الأعصم وبين الريش الأسود ووجه الشبه هو وجود اللون الأبيض الذى يتضاءل أمامه اللون الأسود (حروف الرسالة) والتشبيه يعكس دلالته النفسية فإن جدته كانت قد فقدت الأمل فى وجوده ورؤيته ، فلما جاءها مَكتوبه ذهلت من روعة المفاجأة فحدقت فى الرسالة ، خطها ولفظها ، وحروفها وهى لا تكاد تصدق كأنها تنظر إلى ما لم تكن تحلم به من شىء غير موجود على نحو من هذا الغراب فى قلة وجوده وندرته وقد يكون هذا هو جهة الاشتراك على نحو يكون معه تشبيه رسالته إليها بعد غيبة طويلة ، وانقطاع دائم ، بالغراب الأعصم فى الندرة وقد يجتمع البياض والسواد فى صورة جميلة يحيط فيها الأسود بالأبيض كما فى قوله[1] :

كَـأَنَّ بنـاتِ نَعْـشٍ فِـى دُجَاهَـا  خَرَائِـدٌ سَـافِرَاتٍ فـى حِـدَادِ

والشاعر يستهويه منظر النجوم وتلألئها وهى تتناثر وتتألق فى صفحة السماء منها الثابت ومنها الرجراج ، تحف بها مواكب الظلام الزاحفة فى صمت رهيب وهى ترسل بألقها الباهر وسناها اللامع من خلال جيوش الليل البهيم .

ويرى من خلال هذه الصورة الساحرة الخيالية صورة للخرائد السافرات الحسان بأجفانهن الكحيلة ، وألحاظهن القاتلة ، ووجوههن المتوردة المشرقة تطلع سافرات آخذات وقد طرحن النقاب وبن بدورا وهن ترتدين لباس الحداد .

---

(١) الديوان ١/٣٥٤ .

والصورة التمثيلية تنعقد من خلال تشبيه صورة بنات نعش (كواكب معروفة) وهى منثورة متفرقة متألقة فى صفحة الأفق يحف بها دجى الليل فى ظلامه الرهيب بصورة تلك الكعاب النواهد ، وهن كاشفات عن وجوههن المشرقة مرتديات ملابس الحداد السواد . ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود شيء مستدير لماع أبيض يحف به شيء أسود .

والصورة التشبيهية جميلة تثير فى أعماقنا نوعا من الانفعال بها ، وتتسلل فى هدوء إلى موطن الحرارة من وجداننا ، فتستبد بأحاسيسنا وقلوبنا .

ولعل التقاء الأبيض والأسود ، الأبيض الناصع ، والأسود الشديد السواد فى كل طرف من طرفيها وتقابلهما ساعد على إثارة تلك المتعة الوجدانية مع ما يوحى به البياض من جو النقاء والطهر وما يثيره جو السواد من الجلال والرهبة والدهشة والصمت ، مع تلك المراوحة فى توزيع مساحة الضوء والظل على حدى الصورة من خلال الألق الأخاذ فى نجوم السماء ، وفى وجوه العذارى ، والسواد الكثيف فى دجى الليل ، وفى لباس الحداد مما يجعل المتلقى يطمئن إلى مبعث الجمال فى الصورة ويرتاح إليه .

والصورة بهيئتها تلك هى مقصود الشاعر وهى التى جعلتنا ننفعل بها ونتذوق ما بها من جمال .

وقد تلجأ إلى فض التركيب وتفتت أجزاء الصورة فتشبه بنات نعش منفردة بالخرائد السافرات منفردة ، وتشبه ظلام الليل بلباس الحداد ، وتفتيت الصورة على هذا النحو يفقدها ما كانت تتمتع به وهى تؤدى بصورة تركيبية فضلا على أن هذا ليس ما يقصد إليه الشاعر المبدع الذى لا ينظر إلى بنات نعش منفردة وإنما ينظر إلى بنات نعش فى تلألئها وإشراقتها يحف بها ظلام الليل ويحيط ولا ينظر إلى (الخرائد السافرات) متفردة وإنما ينظر إليهن فى ضيائهن وإشراقهن وهن مرتديات لباس الحداد الأسود الكثيف إذ (ليس القصد أن يريك كل لون على الانفراد وإنما القصد أن يرى الشبه من اجتماع اللونين) [1].

وقد يجتمع البياض والسواد فى الصورة التشبيهية كما قال الشاعر[2] :

أغَــارُ مِــن الزُّجَاجَــةَ وَهــيَ تَجْــرِى عَلَــى شَــفِةِ الأَمِيــرِ أَبــى الحُسَــينِ

---

(١) أسرار البلاغة ٤٨/٢ .

(٢) الديوان ١٩٤/٤ .

كَـــأنَّ بَيَاضَـــهَا والـــرَّاحُ فِيهَـــا  بَيَـــاضٌ مُحْـــدِقٌ بِسَـــوَادِ عَـــيْنِ

وإذا تجاوزت الغيرة الباردة والهوان الذى تردى فيه الشاعر ، وأخذت الزجاجة التى كانت وراء كل ذلك ، فإنك تجد الشاعر يصفها وفيها الشراب فليس المقصود وصف الشراب وحده ، أو الزجاجة وحدها ولكن المقصود وصف هيئة الزجاجة وبداخلها الشارب فالشاعر ينظر إلى الزجاجة فيراها فى لونها الأبيض وينظر إلى الخمر فيراها فى لون أسود ، ويحاول أن ينتزع لذلك شبها فيقع عليه فى بياض العين الصافى يحيط بسوادها ، ويضرب عليه إطارا يحتويه فى وسطه وداخله . والصورة تنعقد من خلال تشبيه هيئة الزجاج البيضاء فى داخلها الشراب الأسود بهيئة بياض العين يحيط بسوادها ويحتويه . ووجه الشبه فى الصورة : هو الهيئة الحاصلة من وجود شىء أبيض بداخله شىء اسود وقد تتوسل الصورة باللون الأسود لتبين كثرة القتلى فى المعركة كقوله فى مديح سيف الدولة[1] :

قـد سَـوَّدَتْ شَـجَرَ الجِبَـال شـعورُهمُ  فَكَـــأنَّ فيـــهِ مُسِـــفَّةَ الغِرْبـــان

فأنت تكاد ترى المصير الأسود الذى آل إليه هؤلاء القوم فى قتالهم للمدوح بعد أن اجتث رقابهم وقطع رءوسهم فى أرض المعركة حين هوت عليها السيوف فمزقتها وأطاحت بها وحملت شعورهم الرياح إلى شجر الجبال فسودته ولونته بلونها حتى ليخيل إليك أن شجر الجبال فى سواده بسبب وقوع شعورهم عليه قد دنت منه الغربان وحطت عليه فتلون بلونها . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه سواد شعورهم وهى معلقة بأعالى الأشجار التى حملتها الريح إليها بالغربان القريبة منها فى لونها ويجمع بين الطرفين هذا اللون الأسمر وقد يتوسل التشبيه باللون الأبيض والأسود ليخرج من بينها صورة فنية كما فى قوله[2] :

وَعقـــابُ لُبْنَـــانٍ وَكَيْـــف بِقَطْعِهَـــا  وَهُـــوَ الشِّـــتَاء وَصَـــيْفُهن شِـــتَاءُ
لَـبَسَ الثُّلُـوجُ بِهَـا عَلَـى مَسَـالِكِى  فَكَأَنَّهـــا بِبَيَاضِـــهَا سَـــوْدَاءُ

والشاعر يتحدث عن جبال لبنان المرتفعة ويبين أن قطع مسافتها فى الصيف مرهق فكيف بقطعها فى الشتاء . ثم يتحدث عن الصعوبة فى ارتقائها لأنها قد

---

(١) الديوان ١٨٣/٤ .  (٢) المرجع السابق ١٨/١ .

سويت بالثلج الذى غطاها بعد أن تجمد عليها فأخفى معالمها عليه ، فلم يعد يتبين مسالكه ، ولا طريقه فيها لتشعبها وبياضها الذى انتشر انتشارا هائلا ضلل الرجل فى طريقه فكأنه فى تيه لا يجد فيه هدى ، وفى حيرة لا يستطيع الخلاص منها .

والشاعر يشبه بياض عقاب لبنان بعد أن غطاها الثلج ، وأخفى معالمها فضل طريقه فيها ولم يهتد إلى مكانه ، بالسواد الكثيف الذى لا يبصر المرء فيه شيئا ومن ثم لا يعرف طريقه . ووجه الشبه هو لون الجبل وقد يتوسل الشاعر باللون الأحمر ، الأسود ، والأبيض حين يستمر القتل ويجرى الدم ، وتتطاير الجماجم ، وهى ملطخة بدمائها ، وعليها شعور أصحابها البيضاء والسوداء ويشبهها بلون ريش ذكر الدراج فى اختلاف ألوانه وتعددها يقول الشاعر[1] :

كَـأن دَمَ الجُمَـاجِم فِـى العَنَاصِـى  كَسَـا البُلْـدَانَ رِيـشَ الحَيْقُطَـان

(والعناصى) جمع عنصوة ، وهى هنا الشعر المتفرق فى جانب الرأس (والحيقطان) ذكر الدراج وهو طائر ريشه أبيض وأسود وأحمر ، والمتنبى يتحدث عن الجماجم بعد انفصالها عن أجسام أصحابها ، وهى تفهق بالدم الذى يملأ أرض المعركة ويجمع بينه وبين الشعر الأبيض والأسود ويقرنه بريش ذكر الدراج والشاعر يشبه شعور القتلى التى تناثرت من على رءوسهم وعليها الدم ، بريش الحيقطان المتعدد الألوان وقد تطاير على الأرض المحمرة بدم القتلى ووجه الشبه هو اللون المشترك بين الأبيض والأسود والأحمر . وقد لا تستسيغ هذا التشبيه وتتوقف أمام كلمتى العناصى والحيقطان وترى فيهما بُعدا وعدم ألفة كما تستطيل كلمة (الحيقطان) بحروفها الكثيرة وتلحظ اختلافا فى المسافة الفاصلة بين مخارج حروفها .

وقد يأتى التشبيه مصورا اللون والحركة السريعة كما فى قول الشاعر[2] يصف بازيا :

كَـأنَّ الـرِّيشَ مِنْـه فِـى سِـهَامٍ  عَلَـى جَسَـدٍ تَجَسَّـم مِـنْ رِيَـاحِ
كَـأنَّ رُءُوس أقْـلامٍ غِـلاَظٍ  مُسِـخْن بـريشِ جُؤْجُئِـهِ الصَّـحَاحِ

---

(١) الديوان ٤/٢٥٩ .  (٢) المرجع السابق ١/٢٥٩ .

فالشاعر فى البيت يصف بازيا بالسرعة والقوة فريشه كالسهام ينفذ به إلى مقاتل الطير وجسده كالرياح فى سرعتها .

فهو يشبه ريشه بالسهام فى فتكها ، ونفاذها وجسده بالرياح فى سرعتها .

وفى البيت الثانى يتحدث عن لون صدره فيشبهه بما فيه من نقش برءوس أقلام غليظة مسحت فى ثوب أبيض ونقطت عليه ووجه الشبه هو ما بينهما من لون .

**الصور السمعية :**

السمع واحد من منافذ إدراك الأشياء وتصورها والإحساس بها والانفعال لها وتصويرها ، ولقد أثر فى ارتقاء ألوان الفنون كالموسيقى والشعر .

وهو يعتمد فى استلهام قيمه الجمالية على الصوت الذى يثير فيمن يصغى إليه ويستمع إلى نبراته وهمسه ، وجهره ، وشدته ، ولينه ، انفعالا خاصا وحسب المنشئ أن يطرب المتلقين عنه من خلال استغلال طاقات اللغة الصوتية من إيقاع ، وترنيم وتقطيع ، وتنغيم ورقة وخشونة وغير ذلك والمتنبى الذى أصبح الدهر منشدا لشعره وغنى به من لا يغنى مغردا قد توسل بالصوت فى تجلية تشبيهاته السمعية فهو يصور الجيش الذى تخاف النجوم مغاره وتميد تحته الأطواد الشواهق فيقول[1] :

وَجَـيْشٍ يُغَنِّـى كُـلَّ طَـوْدٍ كَأَنَّـهُ  خَرِيـقُ رِيـاحٍ وَاجَهَـتْ عُصُـا رَطْبـاَ

والتشبيه يبين نوع الصوت ورهبته وهو يدوى فى الفضاء العريض من خلال جيش الممدوح المندفع المتحرك الذى يطوى الأرض ، ويشق الجبال فيبدو فى شدته كصوت الريح العاصف ، تَمُرُّ بالأغصان الرطبة فتحدث إعوالا ونواحا يثيران الرعب ، ويخلعان القلوب . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه صوت الجيش بصوت الرياح الشديدة فى الرهبة والقوة وأنت تكاد تحس بدرجة هذه القوة التى تكاد تخرق طبلة الأذن من خريق الرياح ، ومن مواجهتها للغصن الرطب كقيد (فى المشبه به) التى تحدث مع مرورها به صوتا شديدا وما يمثله اللفظ (خريق) من دلالة لغوية وصوتية تشعرك بخرقه واجتيازه للحواجز والسدود . فهو يخترق

---

(١) الديوان ٦٩/١ .

ما أمامه ويخرقه وتنعكس دلالة المشبه به على المشبه فترى الهول ، والرعب ، والرهبة كلها تطل من صوت هذا الجيش العرمرم ، وهو يمضى إلى غايته يبتلع المهامه والقفار لا يلوى ولا يستكين .

وقد يتوسل الشاعر بالصورة الصوتية فى التشبيه لإضفاء الحياة على الحصى فيصرخ ويصيح من وقع حوافر خيول الممدوح وهى تضرب الأرض بقوائمها فيقول[1] :

وَمَلْمُومَـــةٌ سَـــيْفِيَّةٌ رَبَعَيَّـــةٌ  يَصِيحُ الحَصَى فِيهَا صِيَاحَ اللَّقَالِقِ

والمراد بالملمومة الكتيبة المجتمعة . واللقالق : جمع لقلق وهو طائر كبير له صوت متميز . والشاعر يصف كتيبة سيف الدولة الربعية فى كثرة عددها وهى بالفلاة يعتلى فرسانها صهوات جيادهم ويجوبون بها هذا المهمه الواسع ، وقوائم الخيول تضرب الأرض ضربا ، وتدق الحصى دقا يصيح من شدة وقع الحوافر عليه صياحا أشبه ما يكون بصوت اللقالق هذا الطائر الكبير ولعل صوته كان أقرب إلى الصراخ منه إلى غيره ، فهو يشبه صوت الحصى حين تطم بعضه ببعض صوت هذا الطائر فى نوعه ودرجته .

وقد يتوسل التشبيه بالصوت ليحكى شيئا من الرقة كما فى تصوير مسيل المياه على الحصى وارتطام بعضه ببعض محدثا أصواتا كوسوسة صوت الحلى فى أيدى الغوانى الحسان يقول المتنبى[2] :

وَأَفْـــوَاهٌ يَصِـــلُ بِهَـــا حَصَـــاهَا  صَـلِيلَ الحَلَـى فِـى أَيـدى الغَـوَانِى

والشاعر يقف أمام المياه وخريرها ويصغى إلى الصوت المنبعث من تدفقها وجريانها ، ولعلها كانت تمر بسيل فيه دقائق الحصى وهى مندفعة من أعلى فيرتطم الحصى ويصطك بعضه ببعض وينشأ عن ذلك هذا الصليل الذى يشبه صوت الحلى فى أيدى الجوارى . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه صوت ارتطام الماء بالحصباء بصوت الحلى فى أيدى الغوانى حين يحركن أيديهن فيضرب بعضه بعضا ووجه الشبه هو الصوت المميز وبديهى أن المشبه هنا وفى البيت السابق هو المصدر المبين لنوع الفعل (يصل) أى يصل صليلا كصليل الحلى وأداة

---

(١) الديوان ٢/٣٢٥ .  (٢) المرجع السابق ٤/٢٥٣ .

التشبيه محذوفة فالتشبيه مؤكد والتشبيه بهيئته وصورته يحكى الترف والنعمة والرغد الذى يعيش فيه القوم وماذا بعد؟ مياه تخر ، وحلى يصل ، وغوان يبعثن البهجة ، ويثرن الفتنة ، ولقد صورت كلمة صليل بجرس حروفها المعنى الذى تدل عليه فإن ارتطام الماء بالحصى يحدث صوتا يصوره الصاد واللام»[1].

وقد تجمع الصورة التشبيهية بين اللون والصوت كما فى قوله[2] :

رُدِّى الوِصَـال سَـقَى طُلُولَـكِ عـارضٌ  لـو كَـانَ وَصْـلُك مِثْلَـهُ مـا أَقْشَـعَا

زَجِـلٌ يُرِيـكَ الجَـوَّ نـارا والمَـلاَ  كـالْبَحر والتَّلَعَـاتِ رَوْضـاً مُمْرِعَـا

فهو يطلب من حبيبته أن ترد وصاله ، ويدعو لطلولها بالسقيا من سحاب دائم المطر ، لو كان وصالها له مثل السحاب الذى يتمناه لطلولها لظل دائما وما انقطع .

وهذا السحاب : زجل له صوت كصوت الرعد . يملأ الجو نارا من برقه والفضاء الواسع بحرا من مطره ، وما ارتفع من الأرض روضا ممرعا لأنه يعم النجاد والوهاد والمنخفضات والمرتفعات .

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الجو من أثر السحاب بالبرق فى الإضاءة والصوت . وتشبه (الملا) الفضاء الواسع بالبحر فى غزارة مائه ، وتدفقه والتلعات(ما ارتفع من الأرض) بالروض فى لونه وأزهاره وخصوبته ومن خلال هذه الصورة ترى كيف امتزج الصوت باللون وأثمر صور التشبيه حين وصف برق السماء ، ورعده . . وماء البحر والأرض الزاهية الخصبة .

والتشبيه بهذه الصورة يحمل وراءه غير المظاهر الشكلية معان أبعد من ذلك وأغزر ، وأعمق . ففى النار دفء ، وإضاءة ، وحرارة ، ولمعان ، وإشراق ، وفى البحر طُهر ونقاء ، وتدفق ، وغزارة ، وسعة ، وعطاء ، وفى الروض نماء وحياة وخصوبة وجمال .

وقد يقوم التشبيه على تبادل معطيات الحواس وتراسلها ، فتقوم الأذن مقام العين فى الإبصار كما فى قوله[3] :

فِـى جَحْفَـلٍ سَـتَرَ العُيُـون غبـارُه  فَكَأَنَّمَـا يُبْصِـرْنَ بـالأَذَانِ

---

(١) أسس النقد الأدبى ص ٤٥٩. دكتور أحمد بدوى طبعة ثالثة سنة ١٩٦٤ مطبعة مصر .

(٢) الديوان ٢/٢٦١ .  (٣) المرجع السابق ٤/١٧٦ .

فالشاعر يتحدث عن خيل الممدوح وهى تسير فى جيشه الكبير وسط النقع الذى أثارته حركة حوافرها وقد حجب الرؤية لكثرته فلم تعد تبصر بعينها ولكن آذانها المرهفة كانت نشطة متيقظة تلتقط الأصوات من هنا وهناك وتُحدِّدُ مَصْدَرها وبعدها ، واتجاهها ، فتفعل ما تقتضيه ، وتأتى تصرفاتها على حسب ما يفرضه الموقف ، ويتطلبه الصوت . فكأنها كانت تبصر بآذانها . لقد نشط خيال الشاعر وانطلق شيطانه فإذا بالحواس تتبادل معطياتها فلم يعد الإبصار مدركا حسيا للعين وحدها ولكن الآذان أيضا أصبحت ترى وتبصر . أليس الغرض من الرؤية البصرية هو كشف المدرك البصرى وتحديده؟ فإذا استطاعت الآذان أن تحقق ذلك فى يسر وسهولة واقتدار فلم لا تستبطن حاسة العين وتؤدى وظيفتها ، وذلك من خلال تشبيه الأذن فى تحديدها للمدرك الحسى بالعين فى كشفها له ورؤيتها إياه . والذى يجمع بين المشبه والمشبه به هو الرؤية .

## الصورة الشمية :

الشم نافذة من نوافذ الإدراك الحسى التى تثير لدى الشاعر إحساسا معَيّناً تجاه الأشياء التى تصور من خلال ارتباطها بهذه الحاسة بعد أن تكون قد أثارت شعوره ، ودفعته إلى تسجيل تجربته الشعرية ، والفنان المبدع هو من يستثمر ملكاته الحسية فى خلق صور جيدة تجعل المتلقى ينفعل معها ، ويحس بها ، وتحقق له اللذة الفنية والمتعة الوجدانية .

ولقد عبر المتنبى عن تجربته الشعرية من خلال المثيرات الشمية ووظفها فى صوره وشكلها تشكيلاً في صياغته .

فهو يتوسل بالتشبيه ليجلى رائحة المحبوبة التى فاقت رائحة المسك من ثيابها من غير أن تمس طيبا فيقول[1] :

بِمَا بَيْنَ جَنْبَىَّ الّتِى خَاضَ طَيْفُهَا ... إلَىَّ الدَّيَاجى والْخَلِيُّون هُجَّعُ

أتَتْ زَائِراً مَا خَامر الطيبُ ثَوْبَهَا ... وكالْمِسْكِ مِنْ أرْدانِهَا يَتَضَوَّعُ

---

(١) الديوان ٢/٢٣٧ .

والشاعر يتحدث عن رائحة الحبيبة الغالية التى تبعث بعطرها الفواح الذى أثمله وأسكره لقد زارته ووجد رائحة المروج الفِيَح تتضوع من أردانها ، وتملأ الجو بأريجها وتنفذ إلى أعماقه فتحرك فيه ما كمن ، وتشعل فيه ما خبا . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه رائحتها الطبيعية الفواحة التى تنبعث من أردانها من غير طيب برائحة المسك فى الرائحة والقيد فى المشبه يضفى على تلك المرأة ألوانا من البهجة والفتنة والسحر فهى طيبة أبدا . رائحتها ذكية أبدًا . في كل الأوقات وكل الأماكن . لأنها تنفح بالطيب الطبيعى تتطيب وهو ملازم لها لا يفارقها .

وقد يأتى التشبيه لتمثيل المعنى المجرد فى صورة شمية كما فى قوله[1]:

وَكَمْ طَرِب المسامع لَيْس يَدْرِى أَيَعْجبُ مِنْ ثنائى أم عُلاَكَا؟

وَذَاكَ النَّشْر عرضك كَانَ مِسْكاً وذاك الشِّعْر فهِرِى والمَدَاكا

فهو يمدح شعره من خلال مدحه للممدوح فيبين أن الثناء العطر هو عِرض الممدوح وعرضه مسك ، والمسك يحتاج إلى من يذيع رائحته وينشرها من خلال الفهر والمداك (والفهر) الذى يسحق به الطيب ، (والمداك) (الصلاية التى يداك عليها) وليس الفهر والمداك سوى شعر الشاعر الذى تغنى بالثناء على الممدوح وأذاع محامده وفضائله فيشبه عرضه وأفضاله يذيعها شعره برائحة المسك يذيعها الفهر المداك وينشر شذاها ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود شيء لا تظهر طيب رائحته ومزايا عرفه إلا من خلال شيء آخر ووجه الشبه تخييلى .

ويمكن فك هذا التشبيه بأن يشبه العرض وهو ما يمدح به الإنسان ويذم بالمسك فى طيبه فالمشبه هنا معنوى كما كان فى التركيب ويشبه شعر الممدوح بالفهر والمداك فى طيبه وشهرته . ولكن فك التشبيه لا يحقق غرض الشاعر الذى لا يقصد إلى تشبيه عرض الممدوح وحده ، أو شعره هو وحده ، وإنما يقصد إلى تشبيه عرضه مرتبطا بشعره فشبه تجلية فضائل الممدوح ونشرها من خلال شعره بالمسك يجليه وينشر رائحته الفهر والمداك . ولعل فى البيت السابق لهذا البيت ما يوضح غرض الشاعر حين يرى فى طرب الطرب السعيد ما يحيره .

---

(١) الديوان ٢/٣٩٣ .

هل كان من ثناء الشاعر عليه وإذاعته لفضائله ؟ أم كان طربه من مفاخر الممدوح ومن علاه ؟ مع ملاحظة أن الشاعر يشرك نفسه غالبا بالمديح مع من يمتدحهم .

وقد يأتى التشبيه لتمثيل الحسى بالمعنوى على طريق التخييل كما فى قول المتنبى[1] :

**وذكـــى رائحـــة الريـــاض كلامهـــا  تبغـــى الثنـــاء علـــى الحيـــا فتفـــوح**

فهو يمتدح المحبوبة بطيب كلامها حين يصف ذكى الروض البهيج فى رائحته العطرة ، وعبيره الفواح بأنه ككلامها ، وحديثها الذى يعبق ويتضوع شذاه وهى تمتدح المطر وتثنى عليه ، والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الذكى من رائحة الرياض بكلامها فى طيبه وحسنه . وأنت ترى الشاعر مفتونا بحديث حبيبته وتذهب به هذه الفتنة إلى تصوير مشاعره من خلالها حين يصغى إلى صوتها فى رقة غنته وجميل ترنيمه فيشده إليه ويخلبه بسحره ، فيرى الذكى فى رائحة الرياض من كلامها هى ويستبد به ذا الإحساس ، ويصعد معه هذا الشعور فيشم عبير حديثها الفواح وهى تثنى على المطر وتمتدحه .

وقد يتوسل الشاعر بالتشبيه ليثبت للخطى رائحة كما فى قوله[2] :

**كَـأَنَّهُم يَـرِدُون المَـوْتَ مِـنْ ظَمَـإٍ  وَيَنْشَـقُونَ مِـن الخَطِـىِّ رَيْحَانَـا**

فالشاعر يصور هؤلاء الأسود المغاوير بأنهم يقتحمون المعارك غير هيابين ولا وجلين وأنهم يبحثون عن الموت ، ويردون حياضه ، وأنهم يجدون فيه لذتهم ومتعتهم كما يجد الظامئ العطشان فى ورود الماء وشربه متعة ولذة ، وهم يستمتعون بلذة رائحة الرماح كما يتلذذون ويستمتعون بشمهم رائحة الريحان .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه لذتهم فى الموت بلذة الظامئ فى شرب الماء البارد وتشبيه رائحة الرماح برائحة الريحان . لقد تحول الرمح فى خيالهم إلى شىء مثير وعجيب إنهم يستمتعون به ويتلذذون ويجدون فيه رائحة الريحان المحببة فينشقونها ويشمونها ويقتحمون بها الأهوال والأخطار .

---

(١) الديوان ١/٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ٤/٢٢٨ .

وقد يشبه أبو الطيب المكان الذى ينامون فيه بأن أثره كالعنبر فى رائحته يقول[1] :

وَلَـيلاً تَوَسّـدنَا الثَّويـة تَحْتَـهُ  كَـأنَّ ثَراهَـا عَنْبَـرٌ فِـى المَرَافـقِ

فالشاعر يفخر بنفسه ويبين أنه يتحمل مشاق السفر وأعباءه ويسرح بخواطره ويتذكر ليلا نام فيه فى هذا المكان (الثوية) وكيف توسد الثرى الذى كان له رائحة العنبر فى طيبه .

فهو يشبه هذا الثرى بالعنبر فى طيب رائحته (فالمشبه به) هنا وصف لمدرك حسى ، وهو يرمى من وراء هذا التشبيه إلى وصف شعوره هو وإحساسه والفخر بنفسه ، وقدرته على النهوض بالأعباء الجسام غير عابئ بما يلقاه وبذلك لا ينفصل التشبيه عن نفسية الشاعر وغرضه الذى يرى فى الثرى الذى يتوسده ، وينام عليه ويرتفق به عنبرا فى طيب رائحته وفى استمالة النفس إليه وبذلك تأخذ الصورة التشبيهية بعهدها الجمالى من خلال قدرتها على الاضطلاع بالتسلل إلى نفسية المنشئ وتصويرها .

وقد يتوسل بالتشبيه لذكر المشابه الحسى للرائحة ، واللون من خلال تشبيه المرأة بالمسك فى قوله[2]:

قَلَـقُ المَلِيحَـةِ وَهْـى مِسْـكٌ هَتْكُهـا  وَمَسَـيرُها فـى اللَيـل وَهْـى ذُكَـاءُ

فالشاعر يتحدث عن حبيبته الحسناء ، فيصفها بأنها مسك ، وبأنها شمس وأن افتضاح أمرها ، إنما يكون بانتهاك سترها ، وانتهاكُ سترها إنما يكون فى مشيها ومسيرها فإذا سارت وهى شمس بالليل أضاءت المكان فرآها الناس وعرفوها فهو قد جعل المسك نفسها ولم يجعله طيبا تطيب به مبالغة فى رائحتها الذكية وجسدها المجسد من العطر نفسه والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه المرأة بالمسك نفسه فى طيب الرائحة .

---

(١) الديوان ٣١٧/١ .

(٢) المرجع السابق ١٣/١ .

## الصورة الذوقية :

تذوق الأشياء له أثر كبير فى إدراكها ، والإحساس بها وتصويرها ، ومن شعر بالظمأ والعطش أدرك متعة تذوق الرى بالماء ، وإطفاء الظمأ .

ومن أحس بلذع الجوع أدرك متعة تذوق الطعام وإشباع البطن .

وطعوم المدركات الذوقية تختلف فمنها المر ، والحلو ، ومنها الحامض ، وغير ذلك والشاعر يستطيع عن طريق إدراكه للأشياء بهذه الحاسة أن يوظفها فى تشكيل صوره التشبيهية كما فى تشبيه رضاب المحبوبة بالعسل الأبيض فى قول الشاعر[1] :

مَظْلُومَـةُ القَـدِّ فِـى تَشْـبِيهِهِ غُصُـنا  مَظْلُومَـةُ الرِّيـقِ فِـى تَشْـبِيهِهِ ضَـرَبَا

والتشبيه يتجاوز الابتذال والقرب إلى الملاحة والحسن من خلال هذا القد المظلوم فى تشبيهه بالغصن فى اللين والاعتدال . والرضاب المظلوم فى تشبيهه بالعسل الأبيض فى حلاوة الطعم وحسنه .

وموطن الشاهد هو التشبيه الثانى الذى ينعقد بين الريق والضرب فى الحلاوة .

والتشبيه يكتسب ملاحته من خلال تفضيل المشبه على المشبه به فالرضاب المظلوم بتشبيهه بالعسل الأبيض يعطى من المعانى ما يفيد أنه أحلى من العسل الخالص وقل مثل ذلك فى القد المظلوم لأن قوامهـا أكثر اعتدالا وحسنا من الغصن .

وقد يأتى التشبيه بحاسة الذوق وهو يطوى معه مدرك الشم من غير أن يصرح به كما فى قوله[2] :

تَرَشَّـفتَ فَاهَـا سُـحْرَةً فَكَـأَنَّنى  تَرَشَّفْتُ حَرَّ الوَجد مِنْ بَارِدِ الظَّلْمِ

والشاعر يتحدث عن رضاب المحبوبة الذى تبله ، وأشعل النار فى فؤاده . ويبين أنه ذاقه فى الوقت الذى يرسل فيه طائر السحر نغماته الرقيقة فى فضاء الكون الساهم . ومظنة تغير نكهة الفم فى هذا الوقت المتأخر من الليل موجودة وقائمة ولكن الظنون أخلفته حين أحس برائحة الفم تسكره ، وتُثْمِله من سحرها الساحر ،

---

(١) الديوان ٣٤/٤ .

(٢) المرجع السابق ٤٨/٤ .

وراحتها المعطرة ثم يوضح أثر هذا الرضاب فى نفسه وما صنعه به حين كان يرتشف من خمره البارد لينقع غلته ، ويطفئ ظمأته . فإذا به يشعل الرغبة فى أعماقه ، ويلهب ساكن الوجد فى جواه وفى داخله .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه ترشفه لرضاب المحبوبة البارد فى هذا الوقت من الليل بترشفه لحر الوجد .

وانظر إلى التعبير (بالسحر) وما يضيفه ريق تلك المرأة من طيب الرائحة ذلك أن رائحة فمها إذا لم يتغير فى هذا الوقت وفعلت به كل تلك الأفاعيل فمعنى ذلك أن رضابها فى أول الليل أحلى وأشهى . ثم تأمل كيف يتحول (بارد الظلم) إلى جوى ساخن ، وحر لاهب بعد أن ترشفه ذواقه .

بل اعجب لقد أصبح حر الوجد نفسه شرابا حلو المذاق يرشف ويمص وقد يأتى التشبيه بحاسة الذوق فى صورة تخييلية جميلة كما فى قوله[1] :

ضنًى فِي الهَوَى كالسُّمّ فِي الشَّهْد كَامِنا  لَـذِذْتُ بـه جَهْـلاً وفـى اللَّـذَةِ الحَتْـفُ

فالشاعر يتحدث عن تجربته مع الحب ، وقد كان يجهل مرارته ، وضرره فأضناه وأسقمه . مع أنه يجد فيه لذة الهوى ، وحلاوة الوجد والغرام ويصور هذا بصورة العسل المدسوس فيه السم القاتل تجسدت فيه لذة المذاق وحلاوة الطعم مع أن حتفه يكمن فيه .

والتشبيه يقوم : من خلال تشبيه حلاوة الحب ، وما فيها ضنى وسقم بحلاوة العسل المدسوس فيه السم القاتل وما فيها من متعة يعقبها الحتف والهلاك ووجه الشبه هو حال الشيء فيه حلاوة يعقبه علقم ومرارة وقد يتوسل التشبيه بمدرك الذوق الذى يفيد السخرية المرة ، والتهكم اللاذع كما فى قوله[2] :

فَكَأَنَّـــه ظَـــنَّ الأَسِـــنَّةَ حُلْـــوَةً  أو ظَنَّهَـــــا البَرنـــــيَّ والآزَاذَا

فهو يتهكم منه ويرى أنه غير كفء لحمل السلاح الذى يحمله ولا أهلا له فليس كل من حمل السيف فارسا ، فالحرب لا يخوض غمارها ، ومخاطرها إلا الصناديد الأبطال لا من يظنونها شيئا حلوا يذاق أو تمرا يؤكل والتشبيه مدرك

---

(١) الديوان ٢/٢٨٤ .

(٢) المرجع السابق ٢/٨٤ .

بالذوق المخصوص بطعم واحد ، وهو ينعقد من خلال تشبيه من حمل الأسنة مع عدم القدرة على تحمل التبعة ولا القيام بما تفرضه من المخاطر بمن يظن فى الأسنة حلاوة ترشف أو تمرا يؤكل .

وقد يأتى التشبيه وقد توسل بأكثر من مدرك حسى وذلك كجمعه بين الذوق والشم فى قوله[1] :

مـاَ أَسْـأَرْتَ فِـى القَعْـبِ مِـنْ لَـبنٍ تَرَكْتَـهُ وهْـو المِسْـك والعَسَـلُ

يصف رضابها بأن طعمه كطعم العسل فى حلاوته وعذوبته ، وأن رائحة مَبْسِمِها كرائحة المسك فى أريجه ، وطيب شذاه . فما تركته وأبقته فى القعب من لبن تركته وهو على هذه الحال .

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه ما تبقى من اللبن فى القعب بعد شربها منه بالمسك فى طيب نكهته . وبالعسل فى حلاوته .

لأن العسل لما لابس مبسمها وهى تشرب أخذ من رضابها رائحته وهى المسك وطعمه وهو العسل .

وقد يتوسل التشبيه بأشياء تساوت فى الطعم والسمع والرائحة كما فى قوله[2]:

فَتَـاةُ تَسَـاوَى عِقْـدهَا وكَلامُهَـا وَمَبْسَـمُها الدُّرى فـى الحُسنِ والنَّظْمِ

وَنكْهتُهـا والمَنْـدَلِىّ وَقَرْقَـفٌ مُعَتَّقَـةٌ صَـهْبَاءُ فـى الـريح والطَّعْـمِ

والبيت الأول يشير إلى تساوى كلامها وهو مدرك سمعى وقلادتها ومبسمها وهما مدركان بصريان فى الحسن والنظم كما تساوت رائحتها والمندلى وقرقف فى الريح والطعم .

## الصور اللمسية :

اللمس واحد من منافذ إدراك الأشياء ووصفها وتصويرها ، والفنان المبدع يستطيع أن يستثمر هذه الحاسة فى تصوير المدركات اللمسية من خلال صفاتها من نعومة ، وخشونة ، وطراوة ويبوسة ، وملاسة ، ورقة ، وغلظة ، وغير ذلك مما

---

(١) الديوان ٣/٣٠١ .

(٢) المرجع السابق ٤/٤٩ .

يدرك بحاسة اللمس والصور اللمسية تقل فى تشبيهات الرجل وما جاء منها لم ينفصل عن حياته وإنما جاء ليمثلها أصدق تمثيل . فهو عاشق للحرب ولآلاتها . فصوره فى هذا المجال تنزع إلى هذا المنحى النفسى . الذى يصبِّح الشاعر ، ويمسِّيه ويلازمه فى غدوه ورواحه ، وفى يقظته ، ومنامه . انظر كيف يتحول الدرع فى ذهن الشاعر الصوال الجوال إلى ملابس فى الصيف وفى الشتاء يتشعَّر بها ويتدثر فيقول[1] :

مَـنْ لاَتُوَافِقُـهُ الحَيـاةُ وطيبهـا ... حَتَّـى يُوافِـقَ عَزْمَـةَ الإنْفَـاذَا

متعـودا لُـبسَ الـدُّرُوعِ يَخَالُهـا ... فِـى البَـرْدِ خـزًّا والهَـواجِر لاَذَا

فالشاعر يتحدث عن ممدوحه ويشيد به ، ويبين أنه إنما يطيب عيشه ، ويهنأ به حين تمضى الحياة فى مسيرتها على إرادته منفذة مشيئته ، وكأنها رهن إشارته ، وطوع بنانه ، ثم يبين أنه مغوار شجاع يعيش للحرب ويعمل من أجلها فهو ملازم لها لا يفارقها قد ألفها وتعود على مقتضياتها لباسه الذى يلبسه ويتزيّى به هو درعها وأداتها فهى فى البرد كالخز (الحرير) وفى الصيف (كاللاذ) الذى ينسج من الكتان ويلاذ به من الحر ، والهواجر والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه لبس الدرع فى البرد (كالخز) الحرير ووجه الشبه هو النعومة . وتشبيه لبس الدروع فى الصيف (باللاذ) ووجه الشبه هو النعومة أيضا .

وأنت تستطيع من خلال صورة المشبه به الذى اقترن به (المشبه)أن تتأكد من همة الممدوح ، وقدرته ، وصبره ، وكيف صارت آلات الحرب والقتال عنده (حريرا ولاذا) فى نعومة ملمسهما وفى رقة لبسهما .

أرأيت كيف يثير التشبيه من خلال قياس المشبه على المشبه به أبعادا شعورية وفكرية نعرف من ورائها ذلك النموذج البشرى الذى تقدمه الصورة التشبيهية فى هذا المثال .

فتشبيه الدرع بالحرير ، واللاذ ، ليس مقصودا لذاته وإنما للمعانى التى يفيض بها ويتدفق من خلال هذه الظواهر الشكلية فى اقتران حدى الصورة ببعضهما .

---

(١) الديوان ٢/٨٤ ، ٨٥ .

فيفهم أن الممدوح شجاع صبور وإذا كان الناس يتزينون بلبس الحرير والخز فإنه يتحلى بلبس الدرع وحمل السنان وإذا كان غيره يركن إلى الدعة ، والهدوء ، والراحة ، والسكون فإنه أخ للحرب عاشق لها يجد راحته فى حركته وانتصاره على أعدائه وإعمال سيفه راحته الحقيقية ووجوده النفسى في ذلك وقد يتوسل بالتشبيه فى تصوير شجاعة الممدوح فى قوله[1] :

يجدُ الحديدَ على بضَاضةِ جلدِهِ ثوبًا أخفُّ من الحريرِ وألْيَنا

فانظر إلى هذا الفاتك الهمام وقد تعود لبس الدروع والتترس بها فى حروبه المتواصلة التى تتكرر ولا تتوقف حتى لقد أصبح وهو صاحب الجلد الناعم البض يجد فى الحديد من كثرة ملازمته له ، ومصاحبته إياه ثوبا خفيفا أرق من الحرير وألين منه .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الدروع التى يلبسها وهى من الحديد بالثوب الرقيق المنسوج من الحرير فى الليونة والنعومة ورقة الملمس .

وهكذا يتحول الحديد بما فيه من ثقل ، وغلظ ، وصلابة على جسد الفارس الشجاع إلى ثوب أخف من الحرير ، وأرق فى ملمسه ونعومته ولك أن تتخيل القيمة التى يضيفها التشبيه من خلال قرن المشبه بالمشبه به على هذا الفارس المغوار ، وإلى أى حد وصل فى شجاعته وقدرته وقوة تحمله وتأمل ما يوحى به قوله (على بضاضة جلده) من الترف والرفاهية ثم هو مع ذلك خلق للحرب لا يخشى بأسها ، ولا يمل لباسها ، ولا تفارقه آلاتها ، حتى صارت رقيقة الملمس خفيفة المحمل أخف من الحرير ، وألين منه .

## المركب الخيالى :

وهو الذى لا يوجد لصورته الكلية وجود فى الخارج ولكن أجزاءه التى تركبت منها الصورة من المدركات الحسية فهو بصورته من مخترعات الخيال الذى يؤلف

---

(١) الديوان ٤/٢٠٠ .

أجزاءها من أشياء موجودة محسوسة وإن كانت صورته الكلية غير موجودة فهو إذًا: «المعدوم الذى لو فرض مجتمعا من أمور كان كل منها مما يدرك بالحس»[1].

يقول المتنبى فى وصف خصر دقيق يشد العيون إليه شدا ، ويجتذبها إليه اجتذابا ، فلا تستطيع عنه تحولا ، ولا تملك أمامه هروبا ، وإنما تتجمد وتثبت فيه تضرب حوله نطاقا تلتف حوله وتتداخل فيه فيقول[2] :

وَطَرْف إنْ سَقَى العُشاق كَأْسًا ... بِهَا نَقْصُ سقَانِيهَا دِهَاقَا

وَخَصْرٌ تَثْبُتُ الأَبْصَارُ فِيهِ ... كَأَنَّ عَلَيهْ مِنْ حَدَقٍ نَطَاقَا

فعناصر التشبيه معروفة ومألوفة يراها الناس وتقع فى نطاق الواقع المشاهد فإذا أنت بحثت عنها وحاولت مشاهدتها على هذا النحو الذى صوره خيال الشاعر لم ترها .

فالخصْر ، والحدق ، والنطاق كل واحد منها مدرك حسى ولكن هذه المفردات حين تتجمع وتتشابك لتشكل صورة فلا يمكن لها أن توجد فى عالم الحقيقة والواقع بصورتها الكلية اللهم إلا إذا تخطيت نطاق الواقع إلى الخيال حينئذ تكون من مخترعاته .

والتشبيه كما تقرر يقوم من خلال تشبيه هذا الخصر الوضىء الشفيف فى دقته وجماله ، وحسن استوائه ، وفتنته الخالبة الساحرة قد أحاطت به الأبصار ، وتعلقت به العيون ، وَتَثَبَّتَتْ فيه الأحداق بهيئة النطاق الذى يلتف حول وسط الحسناء .

ومن الصور الخيالية التى اخترعها خيال الشاعر والتى تشكل التشبيه من أجزائها التى تقع فى نطاق الحس قوله فى تصوير لحظة الوداع ، والفراق ووصف عيون الراحلات المفارقات ، وما يبدو فيهن من حيرة ، واضطراب حين يبعثن بنظراتهن الوسنى فى كل اتجاه ، ويدرن بها يمينا وشمالا فى لهفة وقلق قوله[3] :

وَلَمْ أَر كَالأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيلهم ... بَعَثْن بِكُلّ الْقَتْلِ مِنْ كُل مُشْفِقِ

---

(١) المطول ص ٣١٢ .

(٢) الديوان ٢/٢٩٦ .

(٣) المرجع السابق ٢/٣٠٧ ، ٣٠٨ .

أَدَرْنَ عُيونـــاً حَـــائِرَات كأَنَّهَـــا  مُرَكَّبَـــةٌ أحْـــدَاقُهَا فَـــوْقَ زِئْبَـــقِ

فعناصر الصورة وهى العيون ، والزئبق من المدركات الحسية ولكن العيون التى ركبت أحداقها فوق الزئبق مما اخترعها خيال الشاعر والتشبيه يقوم من خلال تشبيه حركة هذه العيون فى حيرتها واضطرابها وعدم ثباتها وسكونها فى مواقف الفراق والوداع بحركة العيون التى وضعت أحداقها وركبت فوق الزئبق فى عدم الثبات والسكون .

* * *